« إن رسائل النور درس قرآنى يوافق أفهام العصر »[1] .

وعلى كل ما تقدم يتضح أن المنهج القرآنى فى الاستدلال جاء ليحمل عن الإنسانى إصر المناهج البشرية ، ويرشده إلى الطريق المستقيم حيث تلتقى طاقات الإنسان كلها فى بوتقة فطرته السليمة ، وتتوحد جميعاً لترتفع إلى الحق تبارك وتعالى مشيدة بعظمته مقرة بوحدانيته ، معلنة عبوديتها لله رب العالمين عن علم وبصيرة . « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »[2] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) راجع بديع الزمان النورسى حقيقة التوحيد ترجمة الأستاذ قاسم الصالحى ص ٥٧ وراجع الدكتور محسن عبد الحميد النورسى الرائد الإسلامى الكبير ص ٥٠

(٢) سورة آل عمران الآية ٨

الرد على طعن المستشرقين فى أحاديث التوحيد

بقلم

دكتور

على على على شاهين

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد بالكلية

المقدمة

دأب كثير من المستشرقين والمنصرين وغيرهم من الأعداء على شن الحملات الظالمة واختلاق الأكاذيب المضللة ، والاتهامات الجائرة ، والافتراءات الحاقدة ، حول الإسلام ورسوله الكريم ، وهى حملات قامت على التعصب تارة والحقد والحسد والكراهية لهذا الدين وأهله تارة أخرى .

ولقد لقيت السنة النبوية نصيبا وافرا من هـــذه الاتهامات أو تلك الافتراءات، من ذلك أن بعض المستشرقين قد ادعى : أن رسول الله ﷺ قد اقتبس فكرة التوحيد عن الديانة اليهودية ، وزعموا أن إعجاب النبى ﷺ باليهودية دفعه إلى التركيز على فكرة التوحيد ، فالرسول ﷺ — حسب زعمهم — مدين لأحبار اليهود بمعرفته وتنبيه لفكرة التوحيد الخالص الذى لا تشوبه شائبه .

فهل الديانة اليهودية ديانة توحيد حقا كما يزعم هؤلاء المستشرقون ؟ وما معنى مظاهر الشرك بالله والافتراء على رسله الكرام كما يتضح ذلك فى عقائد اليهود والنصارى المنصوص عليها فى كتبهم التى يزعمون أنها مقدسة؟ وهل كان رسول الله ﷺ فى حاجة إلى الاقتباس عن اليهود أو غيرهم ؟ .

وهل التوحيد فى اليهودية الحالية وفى اليهودية التى كانت منتشرة فى جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده مطابق لما جاء به الدين الإسلامى الحنيف فى هذا الشأن ؟

للإجابه عن هذه التساؤلات وغيرها سنقوم بداية بإلقاء نظرة عابرة على نشأة الاستشراق وأهدافه ، ثم نقوم بتناول هـذه الشبهات بالبحث والتحليل مستندين فى ذلك إلى أصل التوحيد وماهيته فى اليهودية كما يراها

اليهود أنفسهم ، مقارنين ذلك بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حول هذا الموضوع ، وذلك تمهيدا للرد على طعون المستشرقين حول أحاديث التوحيد .

وسوف يتناول هذا البحث بإذن الله تعالى الموضوعات التالية :

١ — نشأة الاستشراق وأهدافه .

٢ — استعراض افتراءات المستشرقين حول الأحاديث النبوية الواردة فى التوحيد .

٣ — اليهودية بين التوحيد والشرك .

٤ — التوحيد فى الإسلام .

٥ — الرد على طعون المستشرقين حول أحاديث التوحيد .

٦ — مقارنة حول التوحيد بين الإسلام واليهودية .

٧ — الخاتمة .

١ — نشأة الاستشراق وأهدافه :

اشتدت مخاوف الأحبار والرهبان فى الدول الأوربية على مصير الديانتين اليهودية والمسيحية ، وذلك بعد ما توسعت الفتوحات الإسلامية ولا سيما بعد دخول المسلمين بلاد الأندلس . وقد نقل لنا صورة هذا التخوف المؤرخ الغربى تاتشر (Tathar) فى مؤلفه (المصدر لتاريخ العصور الوسطى) حيث يقول : « لقد قام المحمديون — يقصد المسلمين — بحملات عنيفة فى شمال إفريقيا ، واستولوا على معظم البلدان والمدن هناك ، مما أثار تخوف بابوات الكنائس ، حتى ظن بعض النصارى أن نهاية الزمان قد أتت ، ولقد وصل الخوف بالبابوات قمته عند استيلاء المحمديين على بلاد الأندلس ، فشعر البابوات بهذا الخطر الذى كاد يقضى على المسيحية واليهودية فى أوروبا ، فعملوا على تبصير أصحاب الملتين بهذا الخطر .

وقد حرص بعض القساوسة على اقتناء القرآن للنظر فى محتوياته ، وجذب هذا انتباههم للغة العربية ، فنشط بعض الرهبان فى مدينة طليطلة ، وقاموا بترجمة بعض الكتب العربية »(١) .

وبعد القرن الثامن الهجرى انصب نشاط النصارى على العمل وسط المسلمين باسم التبشير بالديانة النصرانية ، وصاروا يدرسون الإسلام للتغلب عليه ودحره ، وإحلال الديانة النصرانية محله ، ولهذا فقد نادى دعاة التنصير بضرورة تعلم اللغة العربية — لغة المسلمين — والاستدلال بنصوص القرآن والسنة وجميع المؤلفات الإسلامية ، وبذلوا جهدا كبيرا للحصول على المعلومات فى هذا المجال .

ولما كانت دوافعهم ونياتهم على هذا النحو من الخبث لجأوا إلى البحث عن الأقاويل المغلوطة والهدامة المبثوثة فى مؤلفات بعض المنافقين ، من أصحاب البدع والأهواء ، الذين ينتسبون إلى الإسلام زورا وبهتانا ، وذلك للاستعانة بها فى مهاجمة الإسلام .

وإذا تصفح أحدنا الإصدارات القديمة للمستشرقين يجدها مكتظة بالاتهامات الباطلة للإسلام وللنبى ﷺ ، وهى اتهامات بها من السخف والوهن ما يثير بل يحرض على الاشمئزاز ، ولا يشجع على البحث أو الجدل أو النقاش الجاد ، ذلك لأن جميع هذه التهم كانت قد ارتبطت بفكرة التبشير ، وتنفير أبناء الملتين اليهودية والنصرانية من الإسلام ، بتصويره بتلك الصورة المنفرة الكريهة .

كما كان لفشل الحملات الصليبية المتكررة على الدول الإسلامية أثر كبير فى

---

(١) مترجم عن :

Saurce Bdek For medieval Hjstovy p.p. —85– 86

اهتمام المنصرين بالثقافة الإسلامية، علهم يستطيعون دحر الإسلام عن طريق الغزو الفكرى، بعد أن فشلوا فى دحره بقوة السلاح.

ولقد ظهر هذا الأسلوب الماكر الخبيث فى وثيقة تاريخية للملك لويس التاسع — ملك فرنسا — فبعد فشله فى حملته الصليبية الثامنة، وبعد أن هزم هزيمة ساحقة أمام فرسان المسلمين أخذ فى كتابة وثيقة ضمنها مايشير إلى فساد طويته تجاه الاسلام والمسلمين جاء فى هذه الوثيقه «إنه لا سبيل إلى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية»[1].

وعلى الرغم من ذلك: فانه ظل يجمع المحاربين، ويعد الجيوش للقيام بحملة صليبية جديدة[2]، وأوصى مساعديه فى الوقت نفسه بأن يعملوا على طمس معالم الفكر الإسلامى، والتشويش عليه، وترويض المسلمين للتشرب بالأفكار الغربية، عن طريق الغزو الفكرى ما أمكن ذلك، كما أوصى شيعته وأتباعه بدراسة الحضارة الإسلامية، والقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، كمدخل لهزيمة المسلمين فكريا.

وبعد اندحار الملك لويس التاسع وموته، لم ينس خلفه من الملوك والقساوسة وصيته، بل عقدوا مجمعا كنسيا عام ١٣١٢م أكدوا فيه على ضرورة تدريس اللغة العربية فى جامعات أوروبا[3]، كما تنامت حركة المبشرين النصارى واليهود فى عصر التنوير بالنسبة لأوروبا — أى فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى — حيث لجأ كثير من القساوسة والمنصرين إلى دراسة الإسلام، مستترين وراء شعارات البحث العلمى المنهجى، وضرورة النقد الحر للأديان، وقاموا — بناء على ذلك —

(1) Chranical of the crusade p. p. 142—192

(2) Chranical of the crusad p. p. 142 – 192

(3) Creeds of churches p.p. 80—82

بتأسيس كليات متخصصة لتدريس اللغات الشرقية، وعلى رأسها اللغة العربية، فى أهم العواصم والمدن الأوروبية: كلندن، وباريس، وبرلين، وليدن، وغيرها.

وقد كان الهدف الرئيسى من إنشاء هذه المؤسسات هو تزويد المنصرين بمعارف واسعة ومتنوعة حول الإسلام وأهله، كى يتسللوا بعد ذلك إلى الدوائر العلمية الإسلامية: من مدارس ومعاهد وجامعات، ليعيثوا فيها فسادا، بجانب تصديهم لأبناء الدول الإسلامية، وإلحاقهم بهذه المؤسسات والإشراف على تعليمهم وتوجيههم، حتى يصيروا عملاء للفكر والثقافة الغربية، وأدوات هدم للفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية، ولا سيما بعد رجوعهم إلى بلدانهم، وتبوئهم المناصب القيادية فى الدول التى وفدوا منها، ثم إنشائهم المزيد من المدارس والجامعات العلمانية التى ما فتئت تخرج مزيدا من المستغربين وأعداء الإسلام[1].

وقد تم لبعض المستشرقين من اليهود والنصارى تأليف دوائر كاملة للمعارف باسم الإسلام، حيث دسوا كثيرا من المعلومات المغلوطة، والأوهام والأباطيل التى ما أنزل الله بها من سلطان، ثم قاموا بتزويد المدارس والجامعات ومراكز البحث العلمى بها، فأصبحت بحكم الواقع من أهم المراجع المعتمدة لبعض دارسى الدين الإسلامى، وبخاصة باللغات الأجنبية[2].

(١) راجع كتابنا (دراسات فى الاستشراق ورد شبه المستشرقين حول الإسلام) ط أولى

(٢) أنظر: الاستشراق والمستشرقون — وجهة نظر — عدنان محمد وزان ص ١٠٠ — مكة المكرمة ط ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م

٢ — استعراض افتراءات المستشرقين حول الأحاديث الواردة فى التوحيد :

يدعى كثير من المستشرقين : أن الرسول ﷺ اقتبس فكرة التوحيد عن أهل الكتاب ، وبخاصة اليهود . وقد جاء هذا الزعم فى كثير من مؤلفاتهم ، نأخذ منها مؤلف الفريد غيوم المسمى (الإسلام) حيث ورد فيه : أن النبى ﷺ كان يقدم القرابين للأصنام ، ولقد استشهد (غيوم) على ذلك بنص نقله عن ابن الكلبى جاء فيه وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : لقد أهديت للعزى شاة عفراء ، وأنا على دين قومى »[1] .

يقول غيوم معلقا على ذلك : « وكان ذلك بالطبع قبل أن يخبر من حوله بأنه رسول الله » .

لقد ادعى غيوم كذلك : أن تقبيل الحجر الأسود له صلة بالعبادات الوثنية حيث قال : « على الرغم من أن الإسلام قد حرم إقامة الشعائر حول الأنصاب ، وسماها رجسا من عمل الشيطان ، وحض المؤمنين على اجتنابها ، وعلى الرغم من أنه — ﷺ — قد حض أتباعه على ضرورة تجنب عبادة الأوثان ، وأصر على ضرورة توحيد الله فى كثير من الأحاديث التى تعج بها كتب السنة عند المسلمين ، كقوله لصحابته « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » على الرغم من ذلك كله أباح (ﷺ) ما يتعلق بلثم الحجر الأسود ، وعلى الرغم من أن الإسلام قد عاب على الكفار لمس الأحجار والتبرك بها وعبادتها فإن الوثنية قد تسللت إلى الإسلام ؛ لأن كل العالم الذى كان يحيط بالإسلام كان يكتظ بالوثنيين ،

(١) أنظر : jslam. p. p. 6 - 10

ومما لا شك فيه : أن الأحجار والأشجار والأصنام ، وينابيع المياه والآبار كانت من مقدسات الوثنيين ، لأن منهم من كانوا يعتقدون أنها مساكن آلهتهم .

وما زالت عادة وضع قطع من الأقمشة والنقود والهدايا وغيرها فى فروع شجرة مقدسة ، أو حول صخرة تسكنها آلهتهم موجودة حتى اليوم فى معظم بلاد الشرق الأدنى ، ومما لا شك فيه أيضا : أن هذه المعتقدات تتنافى مع فكرة توحيد الإله الذى توجه إليه محمد — ﷺ — بعد معرفته لليهود وديانتهم ، لكن نبى الإسلام لم يستطع أن يتخلى عنها كلها وفضل التمسك ببعضها استمالة لعباد الأوثان ، لأنه كان يأمل أن يناصروه ويؤيدوا دعوته »[1] .

وتحت عنوان : « تأثير اليهود على الديانة المحمدية » نراه يتحدث عن تاريخ اليهود وهجرتهم إلى جزيرة العرب ، واستيطانهم فى معظم أصقاعها ، ووصولهم إلى رتبة الرئاسة وقيادة الشعوب العربيه ، والتأثير عليها فى كل مجالات الحياة ، ويزعم غيوم : أن اليهود فى الحجاز بخاصة كانوا قد أقنعوا كثيراً من العرب باعتناق الديانة اليهودية ، كما يزعم أيضا : أن نشاط اليهود الواسع فى التجارة وخبراتهم بالزراعة جعل العرب يتأثرون بهم ، فكبر اليهود فى أعين العرب ، وذلك مما أدى إلى تسرب بعض القصص الدينية اليهودية إلى الديانة الإسلامية ، ثم يؤكد غيوم هذا الزعم بقوله : « لقد كان هناك يهوديان ينحدران من أصل يمنى ، وهما اللذان لعبا دوراً كبيراً فى شرح وتفسير القرآن والسنة » .

ولكى يؤكد زعمه القائل : بأن فكرة التوحيد دخيلة على الإسلام ، زعم غيوم : بأنه عثر على نسخة غير مكتملة من سيرة ابن إسحاق ، لم

(١) انظر المرجع السابق ـ الصفحة نفسها .

وهذا الحديث فى نظر غيوم مأخوذ عن سفر يونان ـ سيدنا يونس ـ وفيه : « فأخذوا يونانا وألقوه فى البحر .. فكان يونان فى جوف الحوت ثلاثة أيام ، وثلاث ليال ، وصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت ، وقال : إلى الرب صرخت فى ضيقى ، فاستجاب لى من جوف الجحيم ، استعنت فسمع صوتى »(١) .

وقد ادعى المستشرق ستوبرت أيضا فى مؤلفه المسمى (نظم العقائد المغايرة للمسيحية : الإسلام ومؤسس الإسلام) أن رسول الله ﷺ قد أسس التوحيد عن الديانتين اليهودية والنصرانية ، كما ادعى : أن تأثر النبى باليهودية كان أكبر من تأثره بالمسيحية ، وزعم كذلك : أن النبى ﷺ كان يقرأ ويكتب ، مما سهل عليه الأخذ عن أهل الكتاب ، إلا أنه أخفى هذه الحقيقة عن صحابته ، زاعما لهم بأنه أمى .

وقد جاء كل ذلك فى كتابه المذكور أعلاه ، حيث يقول : « لقد تأثر محمد ﷺ بمعتنقى ديانتى التوحيد : اليهودية والمسيحية ، إذ لم يخل عليه الأحبار والرهبان بالمعلومات التى تتعلق بهاتين الديانتين ، وتشهد بذلك كتب السيرة عند المسلمين أنفسهم . فهى تروى لنا رحلات محمد ﷺ إلى الشام ، وكيف أنه التقى ببعض الرهبان فى رحلاته ، كالراهب بحيرا ، والذى يدعى المسلمون أنه بشر محمداً ﷺ بأنه نبى اليهود المرتقب .

إن مثل هذه الأخبار كانت قد شدت انتباه هذا الطفل اليتيم إلى الديانة المسيحية ، وبالتالى إلى الديانة اليهودية لأنها أصل المسيحية ، ليس هذا فحسب ، بل إن اليهودية كانت منتشرة فى جزيرة العرب ، واعتنقها عدد ليس بقليل من العرب قبل الإسلام .

---

(١) سفر نبوءة يونان : ١/١٥ ، ١،٢ — ٣ من الكتاب المقدس ص٢/٧٢٠

ولشدة ذكاء محمد ﷺ علم أن اليهود كانوا يشكلون قوة هائلة ، بعكس النصارى ، لذا نراه يزعم بأنه فعلا النبى الذى كان يرقبه اليهود ، ومما لاشك فيه ، أن كسب اليهود يعنى كسب أكبر عدد من المناصرين لدعوته . لكن اليهود لم يعترفوا بنبوته ، وسخروا منه ، مما جعل رسول المسلمين يغير قبلته من بيت المقدس إلى الكعبة ، ويعلن أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان بنيا الكعبة ، كما أعلن أنهما أول من دعا إلى توحيد الله وذلك ليثبت لأتباعه أنه لم يأخذ فكرة التوحيد عن اليهود ، بل عن جدى العرب . . . ويغلب على ظنى أن محمدا ﷺ لم يكن أميا لأن هناك بعض الآثار الإسلامية التى تدل على أنه كتب صلح الحديبية بيده »(١) .

وتبع ستوبرت خطوات غيوم فى المقارنة بين الأحاديث الشريفة وأسفار التوارة ، ليؤكد زعمه القائل : إن النبى ﷺ أخذ أحاديث التوحيد عن أسفار اليهود .

ومن أمثلة الأحاديث التى زعم أنها مأخوذة عن أسفار التوراة : الحديث الذى أخرجه الإمام مسلم بسنده ، من حديث عبد الله ، قال : « دخل النبى ﷺ مكة ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبا ، فجعل يطعنها بعود كان بيده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد »(٢) .

يدعى ستوبرت : أن أمثال هذه الأحاديث التى تدعو إلى توحيد الله وعدم إشراك الأصنام والأوثان معه فى العبادة مأخوذة عن بعض أسفار

---

(١) Islamandits Founder. p. p, 5—55 Non christian Religiors

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٢ كتاب الجهاد والسير باب فتح مكة ص ١٣٣

اليهود ، ومثل ذلك ما جاء فى سفر تثنية الاشتراع كقولهم : « لا يكن لك آلهة تجاهى ، لا تصنع لك تمثالا منحوتا ، صورة ما فى السماء من فوق ، وما فى الماء من تحت الأرض ، تسجد لها وتعبدها »(١) .

ويعتقد ستويرت : أن تحريم الكهانة والسحر واعتباره شركا يأخذ مأخوذ عن أسفار اليهود . مثل الحديث الذى أخرجه مسلم بسنده ، من حديث نافع ، عن صفية ، عن بعض أزواج النبى ﷺ ، عن النبى ﷺ قال : « من أتى عرافا فسأله عن شىء لن تقبل له صلاة أربعين يوما »(٢) .

وهذا الحديث مأخوذ — حسب رأى ستويرت — عن كتابهم المقدس ، حيث ورد فيه ما يلى : « لا يوجد منكم من يتعاطى عرافة ولا مشعوذا ... ولا ساحرا »(٣) .

ولقد نهج المستشرق اليهودى جويتين نهج غيوم وستويرت ، زاعما أن الإسلام ما هو إلا نسخة شائهة عن اليهودية والمسيحية . ولقد ادعى فى مؤلفه المسمى (الصلة بين العرب واليهود عبر القرون) أن محمدا ﷺ قد اطلع على قصص الأنبياء فى اليهودية ، ثم اقتبسها — مع بعض التحريف والتغيير — وضمنها رسالته .

يقول هذا المستشرق اليهودى فى مؤلفه المذكور آنفا ما يلى : « لقد أعلن محمد ﷺ أمام قومه العرب أن رسالته من عند الله ، وأن ما جاء

(١) سفر تثنية الاشتراع : ٥/٧—٩ من الكتاب المقدس ١/٣٠٨

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٤ كتاب الطب والمرض والرقى — باب تحريم الكهانة وإتباع الكهانة ص ١٢٧

(٣) سفر تثنية الاشتراع : ١٨/١٠ من الكتاب المقدس ١/٣٣٠

به يؤيد ما أنزل على اليهود والنصارى ، مما يدل دلالة قاطعة : أن العلاقة بينه وبين الأحبار والرهبان وأهل الملتين كانت قوية .

ولقد أتى محمد ﷺ بقصص تكاد تطابق ما جاء فى التوراة ، مع بعض التشويه لبعض الحقائق عن الأنبياء ، وربما نتج عن شعوره بأنه خير هؤلاء الأنبياء جميعا وخاتمهم ، ولقد شملت قصصه بعض أنبياء بنى إسرائيل : كنوح وسفينته ، وإبراهيم وزوجاته ، وموسى ومعجزاته الحسية ، وداود وسليمان وتوليهما الملك وتزويدهما بالحكمة ، وغيرهم ، ولكن أغفل ذكر كثير من الأنبياء والملوك ذوى الشأن فى الديانة اليهودية .

إن كل هذه القصص الواردة على لسان محمد ﷺ تدل على أن هناك جماعة من العرب كان لها إلمام واسع باليهودية ونصوص التوراة ، وكان لهذه الجماعه صلة وثيقة بمحمد ﷺ ، ولم يكن أهل مكة كاذبين عند اتهامه بتأليف القرآن بمساعدة إناس يملون عليه أساطير الأولين . بل كان لديهم ما يبرر اتهامهم ويقويه ، وبخاصة أن المؤرخين يؤكدون : أن اليهود كان لهم نفوذ كبير على جزيرة العرب .

إن الدليل القاطع على أن محمدا ﷺ — قد تأثر باليهودية واكتسب منها القوة : أن موسى — عليه السلام — يحتل مكانة رفيعة فى قرآن محمد ﷺ وسنته ، ولأن الآثار المتعلقة بموسى تمتد لتشمل معظم سور القرآن ، ومعظم الأحاديث ، مما يدل على أن موسى كان قد استحوذ على تفكير محمد ﷺ ، وأثار إعجابه ، للدرجة التى جعلته يحاول ابتكار كتاب مقدس خاص به ، لمجاراة موسى »(١) .

وبعد ذلك يزعم جويتين : أن محمدا ﷺ نقل التوحيد عن اليهود ،

(1) Jews and Ayaras : their contact Thxough Ages. p. p. 28—30

ولقد أورد بعض الأحاديث النبوية الشريفة التى تدعو إلى عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به « من كتب السنة الصحيحة ، ثم زعم أنها مأخوذة عن أسفار اليهود ، وبخاصة ما ورد فى سفر تثنية الاشتراع ، ولقد زعم كذلك : أن صفات الله وأسماءه الحسنى مأخوذة عن اليهودية أيضا » وأورد فى ذلك بعض الأمثلة ، منها ما يلى :

الحديث الذى أخرجه الإمام البخارى ، من حديث وارد مولى المغيرة بن شعبة ، قال : « كتب المغيرة إلى معاوية بن أبى سفيان : أن رسول الله ﷺ كان يقول دبر كل صلاة إذا سلم : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »(١) .

زعم جويتين أن هذا الحديث مأخوذ من بعض أسفار التوراة ، مثل : « اسمع يا إسرائيل ، إن الوب إلهنا رب واحد »(٢) .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما أخرجه البخارى بسنده ، من حديث أنس - رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار »(٣) .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١١ كتاب الدعوات باب الدعاء بعد الصلاة ص ١٣٧ — دار الريان للتراث .

(٢) سفر تثنية الاشتراع : ٤/٦ من الكتاب المقدس ٣١٠/١

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان ج ١ ص ٩ ط ١٤٠٤ هـ — ١٩٨١ م دار الفكر .

يزعم جويتين : أن هذا الحديث مأخوذ عما جاء فى سفر التثنية مثل : « أحب الوب إلهك من كل قلبك وكل نفسك ، وكل قدرتك »(١) ، ومن أمثلة ذلك أيضا أسماء الله وصفاته التى وردت فى الحديث الذى أخرجه الإمام البخارى بسنده ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه رواية ، قال : لله تسعة وتسعون اسما ، مائة إلا واحدة لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »(٢) .

ويدعى جويتين أيضا : أن صفات الرحمة والعزة والقدرة وغيرها مأخوذة عن بعض أسفار التوراة التى تتحدث عن نفس الموضوع ، مثل : « أيها الرب إله إسرائيل ، لا إله مثلك فى السماء وفى الأرض حافظ العهد والرحمة لعبيدك »(٣) ومثل : « إن الوب إلهك هو الله ، الإله الأمين ، يحفظ العهد والرحمة لمحبيه ، وحافظى وصاياه »(٤) ومثل : « توبوا إلى الله فإنه رؤوف رحيم ، طويل الأناة ، وكثير الرحمة »(٥) .

ومثل « إن الوب إلهك هو إله الآلهة ورب الأرباب ، الإله العظيم الجبار الرهيب »(٦) .

ومثل : « حى أنا يقول السيد الرب »(٧) .

---

(١) سفر تثنية الاشتراع : ٦/٦ من الكتاب المقدس ٣١٠/١

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١١ كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد ص ١٣٨

(٣) سفر أخبار الأيام الثانى : ١٤/٦ من الكتاب المقدس ٧٢٩/١

(٤) سفر تثنية الاشتراع : ٩/٧ من الكتاب المقدس ٣١٢/١

(٥) سفر يوئيل : ١٣/٢ من الكتاب المقدس ٧٠٢/٢

(٦) سفر تثنية الاشتراع : ١٧/١٠ من الكتاب المقدس ٣١٧/١

(٧) سفر حزقيال : ٦/٣٥ من الكتاب المقدس ٦١٨/٢

ومثل : « فأجاب أيوب الرب وقال : قد علمت أنك قادر على كل أمر فلا يتعذر عليك مراد »[1] .

ولقد نهج المستشرق الانجليزى الدكتور «سنكلير تسدل» والمستشرق المجرى « جولد تسيهر » نهج « غيوم» وستويرت وجويتين ، قال «سنكلير تسدل» ، فى كتابه (تنوير الأفهام فى مصادر الإسلام) ص ١٣ « إن بعض عقائد المسلمين ورسومهم وعقائدهم مأخوذة من مذاهب العرب أيام الجاهلية ورسومهم ، وأن هذا هو أول مصادر الديانة الإسلامية » .

ثم قال « سنكلير تسدل » فى ص ٣٣ من الكتاب المذكور أيضا : « وإذا قارنا بين التعاليم والأخبار الواردة فى القرآن والأحاديث وبين التعاليم والقصص والحكايات التى كانت متداولة بين اليهود وفى تلك الأعصر اتضح لنا جليا أنه يوجد بينهما علاقة ارتباط ومشابهة عجيبة .... بما أن محمدا كان قد عزم على إنقاذ العرب وتحررهم من عبادة الأصنام، وهدايتهم إلى عبادة الله تعالى — وبما أنه كان يعرف أيضا أنهم كانوا فى زمن إبراهيم مؤمنين بوحدانيته تعالى ، وبما أنهم حافظوا على كثير من العادات والرسوم بطريق التوارث عن آبائهم الأتقياء — لم يحملهم صلوات الله وسلامه عليه أو يلزمهم على ترك جميعها ، بل بالأحرى بذل الجهد فى إصلاح ديانتهم ، وإبقاء كل عادة قديمة يرى موافقتها ومناسبتها » .

وقال المستشرق المجرى « جولد زيهر » فى كتابه (العقيدة والشريعة فى الإسلام) ص ١٢ « فتبشير النبى العربى ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف ، وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التى تأثر بها تأثرا عميقا ، والتى رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بنى وطنه » أ. هـ .

(١) سفر أيوب : ١/٤٢ ، ٢ من الكتاب المقدس ٢/٤٩

٣ — اليهودية بين التوحيد والشرك :

توجد آيات كثيرة فى أسفار اليهود تشير إلى توحيد الله تعالى ، وتنزيهه عن النقائص الخاصة ، بخاصة فى الوصايا التى ينسبونها لتوراة موسى عليه السلام .

فهل حافظ اليهود على توحيد الله وتنزيهه كما أوصاهم موسى والأنبياء من بعده ؟ وهل تمسك اليهود بتلك الأقوال التى وردت فى التوراة ؟ وهل حافظ اليهود على تلك العبارات ؟ أو خلطت بعبارات أخرى تناقض وتنافى توحيد الخالق سبحانه وتعالى ؟ وهل سلمت توراة اليهود من المس والتشويه ؟

للإجابة عن مثل هذه التساؤلات فسوف نستعرض أولا الأسفار التى دعت إلى تنزيه الله وعدم الإشراك به ، ثم نورد الأسفار التى تناقض فكرة التوحيد وتدعو إلى الإشراك بالله .

(أ) مظاهر التوحيد فى بعض أسفار اليهود :

نسب مؤلف سفر التكوين بعض الفقرات إلى توراة موسى ، وفيها : أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام : بأن الله وحده هو مالك السموات والأرض .

جاء فى سفر التكوين ما يلى : « مبارك إبرام من الله العلى مالك السموات والأرض . . فقال إبرام . . رفعت يدى إلى الرب الإله العلى مالك السموات »[1] .

وفيه أيضا : أن الله تعالى تجلى لإبراهيم وأراه قدرته ، حتى أدرك سيدنا إبراهيم كثيرا من الحقائق المتعلقة بالله تعالى ، وصار خليلا للرحمن ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة تجلى له الرب وقال له : أنا الله

(١) سفر التكوين ١٤/٢٠ ، ٢٢ من الكتاب المقدس ١/٢٧

القدير اسلك أمامى . وكن كاملا »[1] وفيه « أنت إلهنا الذى طردت سكان هذه الأرض من وجه شعبك إسرائيل ، وأعطيتها لنبيك إبراهيم ، خليلك إلى الأبد »[2] .

وفيه أيضاً : إن الأنبياء هم عباد اختارهم الله لتبليغ رسالته « أما أنت يا إسرائيل عبدى ، ويا يعقوب الذى اخترته ، نسل إبراهيم خليلى »[3] .

ولقد وصفت بعض أسفار التوراة — المنسوبة لأنبياء بنى إسرائيل وملوكهم — الله سبحانه وتعالى بأنه حى . ومن ذلك ماجاء فى سفر يشوع : « الحى الدائم ، خالق جميع الأشياء »[4] وجاء فى سفر صفنيا : حى أنا رب الجنود ، إله إسرائيل ، .

ولقد صرحت بعض أسفار العهد القديم بأن الله تعالى لاتدركه الأبصار ، وهو يدركها ، ولا يستطيع أحد أن يراه فى هذه الدنيا ، لذا حثت هذه الأسفار بنى إسرائيل على عدم عمل التماثيل والتصاوير لله تعالى . ويظهر لنا هذا فى سفر التثنية المنسوب لسيدنا موسى عليه السلام ، يحذر فيه بنى إسرائيل من عمل الأوثان ، ويذكرهم بعهد الله قائلا : « قال لى الرب : اجمع لى الشعب فأسمعهم كلامى ، لكى يتعلموا أن يخافونى كل الأيام التى هم فيها على الأرض ، ويعلموا أولادهم ، فتقدمتم ووقفتم فى أسفل الجبل ، والجبل يضطرم بالنار إلى كبد السماء بظلام وضباب ، فكلمكم الرب من وسط النار ، وأنتم سامعون صوت كلام الرب ، ولكن لم تروا صورة بل

(١) سفر التكوين : ١/١٧ من الكتاب المقدس ١/٣٠ .
(٢) سفر أخبار الأيام الثانى : ٢٠/٧٠ من الكتاب المقدس ١/٧٥٠ .
(٣) سفر اشعياء : ٤١/٩ ، ١٠ من الكتاب المقدس ٢/٣٩٣ .
(٤) سفر يشوع : ١/١٨ من الكتاب ٢/٢٨٩ .
(٥) سفر نبوءة صفنيا ٢/١١ من الكتاب المقدس ٢/١٧٤ .

صوتا ... إنكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب فى حوريب من وسط النار ، لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالا منحوتا ، صورة ، مثال ما ، شبه ، ذكر ، أو أنثى »[1] .

وهناك قول منسوب لسيدنا يعقوب عليه السلام يقول عن الله عز وجل : « هو ذا يمر علىّ ولا أراه ، ويجتاز ولا أشعر به »[2] كما جاء فى سفر أشعياء : « إنك لإله محتجب يا إله إسرائيل المخلص »[3] ، وهناك قول منسوب لسيدنا داود عليه السلام يصف الله قائلا : « أين أذهب من روحك ؟ وأين أفر من وجهك ؟ إن صعدت إلى السماء فأنت هناك ، إن أخذت أجنحة الصبح وسكنت فى أقاصى البحر فهناك أيضاً ، يداك تهدينى ، ويمينك تمسكنى . . . إن الظلمة تغشانى . . . ولا تظلم الظلمة لديك ، والليل كالنهار يضىء ... أعترف لك ، لأنك أعجبت فأدهشت »[4] جاء مثل هذا القول فى نبوءة أرميا أيضا ، حيث قال : « إلهنا عن قريب ... ولست إلهنا عن بعد أيستخفى إنسان فى الخفايا وأنا لا أراه ؟ . . أما أملأ أنا السموات والأرض ؟ . . »[5] .

نجد كذلك أن بعض أسفار العهد القديم دعت إلى إفراد الله سبحانه وتعالى بالربوبية والعبادة ووصفته بأنه واحد ، أزلى ، أبدى ، منزه عن الشرك ، وأن طبيعة الله ثابتة لا تتغير . ولقد جاء فى بعض الأسفار

(١) سفر تثنية الاشتراع : ١١/٤٤ / ١٧ من الكتاب المقدس ١/٥ ، ٣ ، ٣٠٦ ،
(٢) سفر ايوب : ٩/١٢ من الكتاب المقدس ٢/١١٥ .
(٣) سفر اشعياء : ٤٥ ، ١٥ من الكتاب المقدس ٢/٤٠٠ .
(٤) المزامير : ١٣٨/٨ — ١٥ من الكتاب المقدس ٢/١٥٧ .
(٥) سفر أرميا : ٢٣/٢٥ ، ٢٦ من الكتاب المقدس ٢/٤٦٨ .

ما يلى : « أيها الرب الإله لاندّلك ، ولا إله سواك ، على كل ما سمعنـــاه بآذاننا »[١] .

وهناك قول منسوب لسيدنا موسى : « اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا إله واحد »[٢] وقول آخر فيه « الرب هو الإله ليس إله آخر سواه »[٣] . وهناك قول آخر منسوب إلى الله سبحانه وتعالى وفيه « أنا الأول وأنا الآخر ، ولا إله غيرى »[٤] .

ومنها : « بمن تشبهوننى وتعادلوننى ، وبمن تمثلوننى لنتشابه !! . اذكروا هذا ، وكونوا رجالا . وردّدوه فى قلوبكم أيها العصاة .. إنى أنا الله وليس آخر »[٥] . وهناك قول منسوب إلى الله تعالى ، حيث يخاطب سيدنا يعقوب عليه السلام بقوله : « الآن اسمع يا يعقوب عبدى ، ويا إسرائيل الذى اخترته : أنا الأول ، وأنا الآخر ، ولا إله غيرى ها أنتم شهودى هل من إله غيرى ؟ اذكر هذا يا يعقوب ، ويا إسرائيل ، فإنك عبدى »[٦] .

ومنها قول منسوب إلى الله تعالى وفيه : « أنا الرب لا أتغير »[٧] .

---

(١) سفر أخبار الأيام الأول ١٧/٢١ من الكتاب المقدس ٧٠٢/١
(٢) سفر تثنية الاشتراع : ٦/٥ من الكتاب المقدس ٣١٠/١
(٣) تثنية الاشتراع / ٤/٣٥ من الكتاب المقدس ٣٠٧/١
(٤) سفر نبوة أشعياء / ٢٤/٦ من الكتاب المقدس ٣٠١/٢
(٥) سفر نبوة أشعياء / ٤٦/٥ /١٠ من الكتاب المقدس ٤٠١/٢
(٦) سفر نبوة أشعياء / ٤٤/١ /٢١ من الكتاب المقدس ٣٩٧، ٣٩٨
(٨) سفر نبوة ملاحى / ٣/٧ من الكتاب المقدس ٧٦٤/٢

(ب) مظاهر الشرك فى بعض أسفار اليهود :

على الرغم من كثرة الأسفار التى رأيناها فى شأن التوحيد وتنزيه الخالق سبحانه وتعالى ، فإن مؤلفى التوراة لم يلزموا أنفسهم بما جاء فى نصوص تلك الأسفار ، بل أتوا بما يناقضها دون تبرير أو اعتـــذار ، كما أنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى محاولة الجمع بين هـذه المتناقضات ، أو تأويلها بما يجعل النصوص متوافقة متناسقة ومقبولة . ويبدوا أن هـذه المتناقضات أتت نتيجة لتأثر اليهود بالبيئات المختلفة التى عاشوا فيها بجانب تحريف القائمين على أمر الديانة اليهودية لتوراة موسى ، تبعاً لميولهم ونزعاتهم وأهوائهم الشخصية .

ومن هنا جاء تجسيم الإله وتشبيهه بخلقه ، وتصـويره فى شكل صنم يعبد ، ولقد أقر بذلك مؤلف سفر أشعياء حيث يقول : « إنهم يفرغون الذهب من الكيس ، ويزنون الفضة بالميزان ، ويستأجرون صانعاً ، فيصنع ذلك إلها ، فيسجدون له ويخرون .... لا يبرح هـذا الإله من موضعه ، بل يصرخ إليه صارخ فلا يجيب ، ولا يخلصه من ضيقه »[١] .

ولم يستح مؤلف سفر الخروج من أن ينسب إلى الله تعالى الكذب والخيانة ، والتآمر مع اليهود بالباطل ، ضد الشعوب والأمم الأخرى ، وادعى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أمر بنى إسرائيل بسرقة أمتعة المصريين عند خروجهم من مصر ، ويظهر ذلك فى سفر الخروج حيث ادعى مؤلفه أن الله سبحانه وتعالى قال : « ولا تمضوا فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها ، أمتعة فضة ، وأمتعة ذهبا ، وثيابا ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين »[٢] .

---

(١) سفر نبوة اشعياء : ٤٦/٤ — ٨ من الكتاب المقدس ٤٠١/٢
(٢) سفر الخروج : ١٢/٢٣ — ١٥ من الكتاب المقدس ١١٦/١

جاء فى هذا السفر أيضاً : « فتكلم الرب على مسامع الشعب : أن يطلب الرجل من صاحبه . والمرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهبا ... فصنع بنو إسرائيل كما أمر موسى . فطلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهبا وثيابا ، وأتى الرب الشعب حظوة فى عيون المصريين ، فأعاروها لهم وسلبوا المصريين »(١) .

ولقد نسب مؤلف الخروج إلى الله تعالى الجهل أيضاً ، وذلك عندما أورد فى سفره قصة خروج اليهود من أرض مصر ، وزعم أن الله تعالى أمر أهل كل بيت من بنى إسرائيل أن يذبحوا كبشاً ، ويلطخوا بدمه أبواب بيوتهم ، كى يستطيع الله — بزعم كاتب السفر — أن يميز بيوت بنى إسرائيل ، وبيوت أعدائهم ، وبالتالى لا ينزل البلاء والدمار على بيوت بنى إسرائيل ، وهذا هو نص السفر : « أنا أجتاز فى أرض مصر فى تلك الليلة ، وأقتل كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم... أنا الرب ، ليكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها ، فأرى الدم وأعبر عنكم ، فلا تحل بكم ضربة هلاك إذا ضربت أرض مصر ، ويكون هذا اليوم لكم ذكرا ، تعيدونه عيداً للرب مدى أجيالكم ، فريضة أبدية »(٢) .

وعلى الرغم من وجود الأسفار التى نهت عن تشبيه الله بخلقه ، والتى بينت أن الله ليس كمثله شىء ، نجد أن مؤلف

(١) سفر الخروج : ١١ / ٢ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٢٧ من الكتاب المقدس ١ / ١١٧ / ١١٨ .

(٢) سفر التكوين ؛ ١٢ / ١٣ — ١٥ من الكتاب المقدس ١ / ١١٦ .

سفر التكوين يزعم أن الله سبحانه وتعالى — قد جاء فى صحبة ملكين لزيارة إبراهيم الخليل ، وأن الله وملائكته أكلوا من طعام إبراهيم عليه السلام ، واستراحوا فى ظل شجرة وبشروه بمولد ابنه إسحاق .

يروى لنا مؤلف سفر التكوين تلك القصة بقوله : « . . وتجلى له — أى لإبراهيم — الرب ، وهو جالس بباب الخباء . . فرفع طرفه ونظر ، فإذا ثلاثة رجال وقوف أمامه ، فلما رآهم بادر للقائهم . . وقال : سأقدم لكم قليلا من الماء ، فتغسلون أرجلكم وتتكئون تحت الشجرة ، وأقدم كسرة خبز فتسندون بها قلوبكم ، فأسرع إبراهيم إلى الخباء إلى سارة وقال : هلمى ثلاثة أصواع من دقيق سميد ، فاعجنيها وأصنعيها مليلا ، وبادر إبراهيم إلى البقر فأخذ عجلا رخصا ودفعه إلى الغلام ، فأسرع فى إصلاحه ، ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذى أصلحه ، وجعل ذلك بين أيديهم ، وهو واقف أمامهم تحت الشجرة ، فأكلوا فقال — أى الله تعالى بزعمه : سيكون لسارة امرأتك ابن »(١) .

أما مؤلف سفر الخروج : فقد زعم أن سيدنا موسى ومجموعة من شيوخ بنى إسرائيل كانوا قد رأوا الله تعالى وشاهدوه ، هذا على الرغم مما جاء فى بعض الأسفار السابقة تصريحاً من أنبياء بنى إسرائيل ، بخاصة موسى ، أن الله لا يرى فى هذه الدنيا . وقد جاء فى الأسفار مايلى حول هذا الموضوع : « ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ، ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صدفة من العقيق الأزرق الشفاف ، كذات السماء فى النقاوة ، لكنه لم يمد يده — أى الله تعالى — إلى أشراف بنى إسرائيل ، فرأوا الله وأكلوا وشربوا »(٢) .

(١) سفر التكوين ١٨/١ - ١٣ الكتاب المقدس ١/٣١ ، ٣٢

(٢) سفر الخروج : ١٩/٧ - ١٣ من الكتاب المقدس ١/١٢٩

ولم يكتف مؤلف سفر الخروج بهذا ، بل زعم أن جميع شعب إسرائيل رأوا الله عيانا بياناً حيث يقول : « فأجاب جميع الشعب وقالوا: كل ما تكلم به الرب نفعل ، فردد موسى كلام الشعب إلى الرب . فقال الرب لموسى : ها أنا آت إليك فى ظلام سحاب ، لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك ، فيؤمن بك أيضاً . . . وفى اليوم الثالث نزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء »[1] .

وقد بلغ تجسيد الذات الإلهية عند اليهود إلى الزعم أن سيدنا يعقوب عليه السلام قد صارعه وتغلب عليه .

يروى لنا مؤلف سفر التكوين أيضا تلك القصة العجيبة الغريبة بقوله : « بقى يعقوب وحده فصارعه رجل — الله — إلى مطلع الفجر ، ورأى أنه لا يقدر عليه ، فلمس يعقوب حق وركه . وانخلع حق ورك الله فى مصارعته له . وقال ، أى الله : أطلقنى ، لأنه قد طلع الفجر ، فقال يعقوب : لا أطلقك أو تباركنى ، فقال له ما اسمك ؟ قال : يعقوب ، قال : لا يكون اسمك يعقوب فيما بعد بل إسرائيل . . . وسأله يعقوب وقال : عرفنى اسمك ، فقال : لم سؤالك عن اسمى ؟ وباركه هناك وسمى يعقوب الموضع فنوئيل قائلا : إنى رأيت الله وجها لوجه »[2] .

إن الأمثلة على تسرب التجسيد والابتعاد عن تنزيه الله كثيرة متعددة ، ولا يسعنا إلا أن نقول — بعد استعراض المتون المتعارضة فى العهد القديم ، فيما يختص بموضوع الإلوهية والوحدانية . وتنزيه ذات الله وصفاته وأسمائه — لا يسعنا إلا أن نقول : إنه لا توجد هناك أقوال ثابتة

(١) سفر الخروج : ١٩/٧ - ١٣ من الكتاب المقدس ١/١٢٩
(٢) سفر التكوين : ٣٢/٢٤ - ٣٠ من الكتاب المقدس ١/٦٠

تبين لنا حقيقة التوحيد وماهيته فى اليهودية ، لأن اليهود قد ضمنوا التوراة كثيراً من المتون المتعارضة ، التى لا يمكن الجمع أو التوفيق بينها ، وهذا يدل على أن أفكار مؤلفى هذه الأسفار كانت مشتتة ، وموزعة بين الوثنية المتمثلة فى تجسيد الله وتشبيهه بخلقه وادعائهم أن له أنداداً ونظائر ، وبين عقيدة التوحيد الخالصة التى جاء بها أنبياء الله المذكورون فى توراة اليهود وفى القرآن والسنة عند المسلمين .

٤ — التوحيد فى الإسلام :

يقر المسلمون أن أصل الديانات السماوية ومصدرها واحد ، وهى فى حقيقتها صادرة عن الله سبحانه وتعالى ، ويقر المسلمون أيضاً : أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنه هو الله الواحد ، فشهدوا على ذلك ، قال تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » (سورة الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣) .

قال ابن كثير فى شرحه « يخبر الله تعالى : أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم : أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك ، وجبلهم عليه ، قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)[1] . وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة »[2] .

(١) سورة الروم : ٣٠
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٦ - كتاب القدر ، باب الله أعلم بما كانوا عاملين ص ٢٤٣٤ حديث رقم ٦٢٢٦ مرجع سابق .

ولقد ورد فى القرآن الكريم : أن أهل الكتاب — من يهود ونصارى — قد غلفوا عقائدهم بغلاف الوثنية ، وبالتالى جعلوا لله أنداداً ونسبوا له الولد . قال تعالى : « وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)[1] .

أما المسلمون فقد أخذوا التوحيد عن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فهم يوحدون الله سبحانه تعالى توحيداً خالصاً نقياً ، لا يعرف المواربة أو التشكيك .

ولتأكيد ذلك سوف نورد هنا بعض أقوال السلف الصالح ، المستقاة من الكتاب والسنة ، وذلك تمهيداً لمقارنتها فيما بعد بعقيدة التوحيد المزعومة عند اليهود كما يراها أحبارهم وعامتهم .

قال صاحب كتاب جوهرة التوحيد : « إن التوحيد الشرعى هو إفراد المعبود بالعبادة ، مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفات وأفعالا ، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجه ، ولا تشبه ذاته الذوات ، ولا تشبه صفاته الصفات ، ولا يدخل أفعاله الاشتراك .

وقيل : التوحيد هو إثبات ذات غير مشبهة بالذوات ، ولا معطلة عن الصفات وتخصيص الإرسال — أى إرسال الرسل — بالتوحيد ، لأنه أشرف العبادات ، وأفضل الطاعات ، وشرط فى صحتها ، وسبب النجاة من العذاب المخلد . . والمراد بالوحدانية هى وحدة الذات والصفات بمعنى عدم النظير فيهما ، بأنه لو وجد فردان متصفان بصفات الإلوهية لأمكن بينهما تمانع ،

(١) سورة التوبة ٣٠ ، ٣١

بأن يريد أحدهما حركة زيد ، والآخر سكونه ، لأن كلا منهما فى نفسه أمر ممكن ، وكذا تعلق الإرادة بكل منهما ، إذ لا تضاد بين الإرادتين ، بل بين المرادين ، وحينئذ إما أن يحصل الأمران فيجتمع الضدان ، أولا ، فيلزم عجز أحدهما ، وهو أمارة الحدوث . لما فيه من شائبة الاحتياج ، فالتعدد مستلزم لإمكان التمانع المستلزم للمحال ، فيكون محالا وهذا يقال له : برهان التمانع وإليه الإشارة بقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[1] .

والله تعالى منزه عن أى مضاد له أو لصفاته . . والغرض أنه واجب الوجود قديم ، فلا مشابه له تعالى فى ذاته ، أو فى صفاته بوجه أو حال ، لوجوب مخالفته تعالى للممكنات ذاتا وصفات . . فلا تكثر فى ذاته ولا نظير له فى صفاته ، ولا اختراع لغيره فى أفعاله ، وهو منزه عن الولد والوالد والأصدقاء »[2] .

ويشرح شيخ الإسلام ابن تيمية عبارة (لا إله إلا الله) التى جاءت فى القرآن والسنة بقوله : « لا إله إلا الله : هى كلمة التوحيد ، التى اتفقت عليها كلمة الرسل — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — بل هى خلاصة دعواتهم ، وزبدة رسالاتهم ، وما من رسول منهم إلا جعلها مفتتح أمره ، وقطب رحاه ، كما قال نبينا ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل)[3] .

(١) سورة الأنبياء ٢٢

(٢) جوهرة التوحيد ٨٢ — ٨٥

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الإيمان جـ ١ ط ١٤٠١هـ ١٩٨١م دار الفكر باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) . ص ١١ ، ١٢ .

ودلالة هذه الكلمة على التوحيد باعتبار اشتمالها على النفي والإثبات المقتضى للحصر، وهو أبلغ من الإثبات المجرد، كقولنا: الله واحد مثلا: فهي تدل بصدرها على نفي الألوهية عمن سوى الله تعالى، وتدل بعجزها على إثبات الألوهية له وحده، ولابد فيها من إضمار خبر، تقديره: لامعبود بحق موجود إلا الله، أما قوله لاشريك له، فهو تأكيد لما دلت عليه كلمة التوحيد»[1].

إن الذات الإلهية حسب ما جاء في الإسلام لا تنقسم ولا تتجزأ، فلقد قال سبحانه وتعالى في سورة الإخلاص: «قل هو الله أحد ● الله الصمد ● لم يلد ولم يولد ● ولم يكن له كفوا أحد»[2].

ولكي نزيد الأمر وضوحا نلجأ إلى المفسرين لنستلهم منهم المعنى المراد.

قال الآلوسي: «وفرق بعضهم بينهما — أي بين كلمة أحد وواحد — بأن الأحد في النفي نص في العموم، بخلاف الواحد، فإنه محتمل للعموم وغيره، فيقال: ما في الدار أحد، ولا يقال بل اثنان، ويجوز أن يقال: ما في الدار واحد بل اثنان، ونقل عن بعض الحنفية أنه قال في التفرقة بينهما: إن الأحدية لاتحتمل الجزئية والعددية بحال، والواحدية تحتملها، لأنه يقال: مائة واحد، ولا يقال مائة أحد... وفرق الخطابي: بأن

(١) شرح العقيدة الواسطية تأليف محمد خليل هراس ط ٤ ص ١٢ راجعه الأستاذ عبدالرزاق عفيفي علق عليه فضيلة الشيخ إسماعيل الأنصاري دار الثقافة للطباعة مكة المكرمة ط ثانية ١٤١٢ هـ — ١٩٩٢ م، وراجع كتاب التنبيهات السنية على العقيدة الواسطيه — الشيخ عبد العزيز الناصر الوشيد ص ٧ دار الوشيد للنشر والتوزيع — الرياض.

(٢) سورة الإخلاص بتمامها.

الأحدية لتفرد الذات، والواحدية لنفي المشاركة في الصفات... ولما لم ينفك في شأن الله تعالى أحد الأمرين من الآخر، قيل الواحد الأحد، في حكم اسم واحد.. وفسر بما لايتجزأ ولا ينقسم.. والمراد هنا حيث أطلق المتصف بالواحدية التي لايمكن أن يكون أزيد منها، ولا أكمل فهو ما يكون منزه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد، خارجاً وذهناً، وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز، والمشاركة في الحقيقة وخواصها، كوجوب الوجود، والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية»[1].

مما سبق نستنتج: أن التوحيد في الإسلام هو توحيد الله سبحانه وتعالى، والإقرار له بالألوهية والربوبية المطلقة.

فالله سبحانه وتعالى الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء وأن صفاته كلها كما هي أبدية، فهي كذلك أزلية، وليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انتهاء تعالى الله يقولون علوا كبيراً.

ويقر المسلمون حسب النصوص الموجودة عندهم في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أن الله تعالى أرسل إلى الناس منذ آدم وإلى مجيء خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد ﷺ، أرسل إليهم رسلا وأنبياء مبشرين ومنذرين، وأوحى إليهم: أنه لا إله إلا الله.

قال تعالى: «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله أنا فاعبدون»[2].

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني — للعلامة الآلوسي البغدادي ج ٣٠ ص ٢٧٢ — دار أحياء التراث العربي — لبنان.

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٥

ولقد بين الله سبحانه وتعالى قصص هؤلاء الأنبياء ، وأحوالهم مع أقوامهم فى القرآن الكريم كما بينت السنة النبوية الشريفة ذلك أيضا .

ولقد بين القرآن الكريم أن أولئك الرسل والأنبياء كانوا يدعون أقوامهم إلى عبادة الله الذى لا إله إلا هو ، وقد أخذ الله سبحانه وتعالى عليهم الميثاق لئن جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه ، قال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »(١) .

ولقد حث القرآن الكريم الناس على الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين كما ورد ذكرهم فى القرآن فى كثير من السور ، من ذلك : ما جاء فى سورة البقرة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين »(٢) .

يقول الآلوسى فى تفسيره للآية (المراد بهذا الإيمان : إيمان خال عن شائبة الإشراك ، لا كإيمان اليهود والنصارى ، القائلين عزير بن الله ، والمسيح بن الله .. واليوم الآخر : أى : الميعاد .. والملائكة : أى : آمن بهم وصدق أنهم عباد مكرمون ، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، ومنهم المتوسطون بينه تعالى ، وبين أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، بإلقاء الوحى وإنزال الكتب ، والكتاب : أى جنسه ، فيشمل جميع الكتب الإلهية ، لأن البر الإيمان بجميعها كما ورد فى الحديث(٣) :

(١) سورة آل عمران : آية : ٨١
(٢) سورة البقرة آية : ١٧٧
(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ١ كتاب الإيمان — باب سؤال جبريل للنبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ص ١٨

أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، أو القرآن . لأنه المقصود بالدعوة والكامل الذى يستأهل أن يسمى الكتاب ، والإيمان بجميع الكتب ، لكونه مصدقا لما بين يديه ... والإيمان بالكتب : أن يؤمن أنها كلام الرب — جل شأنه — منزهة عن الحدوث ، منزلة على ذويها ، ظاهرة لهم حسبما اقتضته الحكمة من اللغات والنبيين : أى جميعهم من غير تفرقة بين أحد منهم ... والإيمان بهم أن يصدق بأنهم معصومون ، مطهرون ، وأنهم أشرف الناس حسبا ونسبا ، وأن ليس فيهم وصمة ولا عيب منفر ، ويعتقد : أن سيدهم وخاتمهم محمد ﷺ ، وأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع ، والتمسك بها لازم لجميع المكلفين إلى يوم القيامة »(١)

وقد شهد الله سبحانه وتعالى للرسول — ﷺ — وللمؤمنين بأنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم فى قوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »(٢) .

ويقول الآلوسى عن حقيقة هذا الإيمان : « آمن بالله : أى صدق به وبصفاته ، ونفى التشبيه عنه ، وتنزيهه عما لا يليق بكبريائه ، من نحو الشريك فى الألوهية ، والربوبية وغير ذلك ، ملائكته : أى من حيث أنهم معصومون مطهرون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، من شأنهم التوسط بين الله تعالى وبين الرسل بإنزال الكتب وإلقاء الوحى ، وبهذا ذكروا فى النظم قبل قوله تعالى : « وكتبه ورسله » أى من حيث

(١) روح المعانى : ٢/٤٥ ، ٤٦
(٢) سورة البقرة : ٢٨٥

بجميعها منه تعالى على وجه يليق بشأن كل منهما، ويلزم الإيمان التفصيلي فيما علم تفصيلا من كل ذلك، والإجمالي فيما علم إجمالا . . . لا نفرق بين رسل الله تعالى — نؤمن ببعض ونكفر ببعض — كما فعل أهل الكتابين بل نؤمن بهم جميعا، ونصدق بصحة رسالة كل واحد منهم »[1] .

٥ — الرد على طعون المستشرقين حول أحاديث التوحيد :

لقد رأينا فيما سبق . أن المستشرق غيوم قد نقل حديث منسوبا لرسول الله ﷺ من كتاب (الأصنام) لمؤلفه ابن الكلبي، واستدل بهذا الحديث على شيئين :

أولهما : أن النبي ﷺ عبد قبل بعثته الأوثان وقدم لها القرابين .

ثانيهما : أن النبي ﷺ قد ترك عبادة الأصنام بعد أن بين له بعض من تأثر باليهودية من العرب شيئاً عن عقيدة التوحيد .

نقول وبالله التوفيق :

إن الحديث الذى أورده ابن الكلبي فى مؤلفه (الأصنام) والذى اعتمد عليه غيوم لتدعيم افتراءاته، حديث لا أصل له ولاسند، كما أنه مروى بصيغة ضعيفة لا يعتدبها علماء المصطلح، وبجانب ذلك فإنه حديث منكر، متعارض مع الروايات المعروفة حول هذا الموضوع، والتى رواها الثقات، مما يجعل رواية ابن الكلبي رواية واهية .

ولقد ورد فى كتب السنة المعتبرة : أن النبي ﷺ كان يتعبد فى غار

(١) روح المعانى : ٣ / ٦٨ .

حراء الليالى ذوات العدد قبل مبعثه، ومن أمثلة ذلك : الحديث الصحيح الذى أخرجه الإمام البخارى — فى حديث طويل — من حديث عائشة — رضى الله عنها — أنها قالت : « أول مابدىء به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه — وهو التعبد[2] — الليالى ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك »[3] .

ومما لاشك فيه : أن المصادر[4] التاريخية المعتبرة لدى المسلمين وكتب السيرة[5] قد أجمعت أنه ﷺ لم يقرب عبادة الأصنام، ولم يتقرب إليها بأى قربان .

أما ابن الكلبي الذى اعتمد عليه غيوم فى إثبات افتراءاته واتهامه للنبي ﷺ بالتقرب إلى الأصنام، فهو رافضى، مجروح من أئمة الجرح والتعديل الموثوق بهم لدى المسلمين . من ذلك ما جاء عن سيرته فى معجم الأدباء حيث يقول صاحب المعجم : « ابن الكلبي مشهور بالرفض وبالغلو فى التشيع »[6] .

(١) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحى، باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ حـ ١ ص ٤ .

(٢) « وهو التعبد » مدرج من كلام الزهرى، وهو تابعى أفاده ابن حجر (فتح البارى ١ / ٢٣) .

(٣) انظر البداية والنهاية ٦/٣ الكامل فى التاريخ : ٣٨، ٣٩ .

(٤) سيرة ابن إسحاق : ٥٨ - ٥٩، سيرة ابن هشام : ٧٠ - ٧٤ السيرة النبوية ٢ - ١٧ - ٢٠ .

(٥) معجم الأدباء ١٩ / ٢٨٧، ٢٨٨ .

وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل : « كان صاحب سير ونسب ، ماظننت أن أحداً يحدث عنه » (١) .

وقال ابن العماد الحنبلي : « هشام بن محمد ، ابن السائب ، الكلبي ، الأخباري ، النسابة ، صاحب كتاب الجمهرة في النسب ، ومصنفاته تزيد على مائة وخمسين تصنيفا ، في التاريخ والأخبار ، وكان حافظا علامة ، إلا أنه متروك الحديث ، فيه رفض » (٢) .

وقد رفض المحدثون وأئمة المسلمين أحاديث الرافضة ، نسوق هنا ماقاله بعضهم .

قال أشهب : سئل مالك عن الرافضة ؟ فقال : « لاتكلموهم ولاتروا عنهم » (٣) .

قال الشافعي : « لم أر أشهد بالزور من الرافضة » (٤) .

أما زيد بن عمرو بن نفيل فقد كان فعلا — كما حكى المؤرخون (٥) — من الحنفاء الذين تجنبوا عبادة الأوثان في الجاهلية ، وقد قال شعراً في نبذ الأصنام ، وحث الناس على تركها ، وكان لا يذبح للأنصاب ، ولا يأكل الميتة ، لكن زيد بن عمرو كان قد نفر من الديانتين اليهودية والنصرانية — أيضا — حين عرضتا عليه ، حيث لم ير فرقا بينهما وبين الأديان الوثنية ، وفي هذا الشأن جاء في أسد الغابة ما يلي : « خرج زيد

(١) معجم الأدباء ١٩ / ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
(٢) شذرات الذهب ٢ / ١٣ أيضا الفهرست : ١٨٩ - ١٩٤ .
(٣) تدريب الراوي ١ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٤) تدريب الراوي ١ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٥) تدريب الراوي ١ / ٢٢٧ .

ابن عمرو بن نفيل في الجاهلية يطلب الدين وورقة بن نوفل ، فلقيا اليهود فعرضت عليهما يهود دينهم فتهود ورقة ، ثم لقيا النصارى فعرضوا عليهم دينهم ، فترك ورقة اليهودية وتنصر ، وأبى زيد بن عمرو بن نفيل أن يأتي شيئاً من ذلك ، وقال : ماهو إلا كدين قومنا ، تشركون ويشركون ولكنكم عندكم من الله ذكر ، ولا ذكر عندهم ، فقال له راهب : إنك لتطلب دينا ما هو على الأرض اليوم ، فقال : وما هو ؟ قال : دين إبراهيم .... كان يعبد الله ولا يشرك به شيئاً » (١) .

إن هذا يبطل أيضا زعم غيوم : أن الديانة اليهودية كانت معتبرة لدى عرب الجاهلية ، ومما يقوى هذا الرأى : أن معظم عرب الجاهلية كانوا قد فضلوا عبادة الأوثان على اليهودية ، على الرغم من أنهم دخلوا في الدين الإسلامي أفواجا ، بعد أن عارضوه وقاوموه في بادىء الأمر .

أما محاولة غيوم أن يربط شعائر الحج بالعبادات الوثنية والشرك في محاولة سخيفة لا تمت للحق بصلة ، إذ أن عرب الجاهلية كانوا يجلون الكعبة الشريفة ، والحجر الأسود ، وبئر زمزم . لأنها ارتبطت بآثار دينية تمتد جذورها إلى سيدنا إبراهيم الخليل ، كما هو معروف لدى المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب أيضاً ، كما وأن بعض هذه الآثار الدينية موجود (٢) بأسفار التوارة لدى اليهود إلى اليوم ، وعلى الرغم من ذلك نرى أن غيوم يحاول ربط هذه الشعائر بالوثنية ، ولا يتطرق إلى ذكر صلتها بالديانة اليهودية كما فعل مع أحاديث التوحيد .

أما تقبيل الحجر الأسود والطواف بالبيت والسعي ، فهي شعائر إسلامية ، أمر المسلمون بأدائها كما أداها رسول الله ﷺ دون زيادة

(١) تاريخ العرب في الجاهلية : ٤٨٨ ، ٤٨٩ .
(٢) الاستيعاب : ٢ / ٦١٦ . أسد الغابة ٢/ ٢٩٥ ، الإصابة ١ / ٥٢٢ .

أو نقصان[1] ، لأن مناط التشريع فى الإسلام هو الامتثال والاتباع ،هذا مع ملاحظة أنه لم يرد فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، ولا فى الآثار الإسلامية ما يشير إلى أن الآلهة تسكن بالبيت العتيق ،أو الحجر الأسود، كما أن الحجر الأسود لا يضر ولا ينفع ، وأن تقبيله واجب دينى ، وتأدية لعبادة مفروضة . ولقد أخرج الإمام البخارى بسنده ، من حديث عمر رضى الله عنه : « أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال : إنى أعلم إنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك »[2] .

ولقد نقل ابن حجر آراء العلماء فى هذا الحديث .

منها قول الطبرى : إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام ، فخشى عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار ، كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية تعتقد فى الأوثان »[3] .

ومنها قول المهلب : « إنما شرع تقبيله اختبارا ، ليعلم بالمشاهدة طاعة من يطيع ، وذلك شبيه بقصة إبليس حيث أمر بالسجود لآدم »[4] .

ولقد علق ابن حجر على الحديث بقوله : « وفى قول عمر هذا : التسليم

(١) انظر الفصل السادس عشر من سفر التكوين، من الكتاب المقدس ١ / ٢٩ ، ٣٠

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الحج ، باب ما ذكر فى الحجر الأسود ٣ / ٤٦٢

(٣) فتح البارى : ٣/ ٤٦٢ ، ٤٦٣

(٤) فتح البارى : ٣/ ٤٦٢ ، ٤٦٣

للشارع فى أمور الدين ، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها ، وهو قاعدة عظيمة فى اتباع النبى ﷺ فيما يفعله ، ولو لم يعلم الحكمة فيه ، وفيه دفع ما وقع لبعض الجهال من أن للحجر الأسود خصوصية ترجع إلى ذاته ، وفيه بيان السنن بالقول والفعل ، وأن الإمام إذا خشى على أحد من فعله فساد اعتقاد أن يبادر إلى بيان الأمر ويوضح ذلك »[1] .

وقال النووى : « أما قول عمر رضى الله عنه . فأراد به بيان الحث على الاقتداء برسول الله ﷺ فى تقبيله ، ونبه على أنه لولا الاقتداء به لما فعله ، وإنما قال : وإنك لا تضر ولا تنفع ، لئلا يغتر بعض قريبى العهد بالإسلام ، كالذين كانوا ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمها ، ورجاء نفعها ، وخوف الضرر بالتقصير فى تعظيمها ، وكان العهد قريبا بذلك ، فخاف عمر رضى الله عنه أن يراه بعضهم يقبله ويعتنى به فيشتبه عليه ،فبين أنه لا يضر ولا ينفع بذاته ، وإن كان امتثال ما شرع فيه ينفع بالجزاء والثواب .

فمعناه أنه لا قدرة له على نفع أو ضرر ، وأنه حجر مخلوق كباقى المخلوقات التى لا تضر ولا تنفع ، وأشاع عمر هذا فى الموسم ليشهد فى البلدان ، ويحفظه عنه أهل الموسم المختلفو الأوطان[2] .

ومما يدلنا على أن غيوم يفتقر إلى الجدية والنزاهة فى النقل وتوثيق المعلومات زعمه أنه قد عثر على مخطوط لم ينشر بعد لسيرة ابن إسحاق ، اعتمد عليه فى نقل افتراءاته عن النبى ﷺ ولكنه لم يشر إلى مكان وجود هذا المخطوط على وجه التحديد ، كما زعم أن معظمه كان قد فقد .

وإذا سلمنا بصحة وجود مثل هذا المخطوط فإننا لا نأمن أن تكون

(١) فتح البارى ٢/ ٤٦٣

(٢) صحيح مسلم شرح النووى : ١٦/٩ ، ١٧

قد امتدت إليه يد التشويه والتحريف، بواسطة غيوم وأمثاله من الكفرة الحاقدين على الإسلام.

وعلى فرض صحة وجود هذا المخطوط وصحة نسبته لابن إسحاق، فإن مقتضيات البحث العلمي الجاد تحتم على الباحث عدم التسرع وإصدار الأحكام القاطعة دون فحص الروايات الأخرى المتعلقة بالموضوع نفسه أو على الأقل دون أن يعثر على روايات أخرى تقوى هذه الرواية وتدعمها.

وعليه: فإن هذا الحديث الذى ساقه عن ابن إسحاق يعد أيضا كسابقه مردود حسب مقاييس علماء المصطلح، بل إن الرواية ليس لها إسناد قائم، وعليه فلا يعد مثل هذا الكلام حديثا أصلا، ولا تحل رواية مثله إلا لبيان وضعه، وتحذير المسلمين من شره.

ولقد ادعى غيوم فى مقدمة مؤلفه المسمى (الإسلام): أنه سوف يبحث الإسلام بحثا علميا دقيقا بعيدا عن التعصب والهوى، إلا أنه لم يف بوعده، ولقد سار أيضا على هذا النهج المتعصب فى مؤلفه الآخر المسمى (الحديث عن الإسلام) واستشهد ببعض الأحاديث النبوية الصحيحة الواردة فى شأن التوحيد وتنزيه الله زاعما أنها مأخوذة عن أسفار التوراة.

لكن باستعراض بعض الأسفار المتضمنة فى التوراة تبين لنا: أن هناك اضطرابا، وتخليطا، وارتباكا شديدا، حول موضوع وحدانية الله سبحانه وتعالى، بل هناك دعوة صريحة للشرك وعبادة الأصنام، والسجود لها، وقد سقنا أمثلة كثيرة من توراة اليهود فى هذا الشأن. وهذا بالطبع يتنافى مع كلمة التوحيد التى ظل المسلمون يؤكدونها منذ فجر الإسلام وإلى يومنا هذا وهى (لا إله إلا الله).

بل إن تناقض نصوص التوراة فى شأن التوحيد — كما رأينا ذلك منذ قليل — يدل دلالة واضحة على أن اليهود لم يلتزموا كلمة التوحيد، ولم يكونوا

أهلا لتحملها، حتى يعجب بهم غيرهم، ويقتدوا بهم فى ذلك، كما ادعى غيوم وغيره. بل إن فعل اليهود الذى حكاه عنهم سفر أشعياء يتنافى مع إفراد الله بالعبادة، كما جاء فى الحديث الشريف الذى استشهد به غيوم، وهذا نصه: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا).

كما أن سفر أشعياء يبين أن اليهود صنعوا آلهة وعبدوها، ولم يفردوا الله بالعبادة، ولم يلتزموا بما جاء فى سفر التثنية: (وإياه يعبدون). فكيف يقتدى بهم رسول الله ﷺ فى هذا الكفر، كما ادعى غيوم ؟!

ولقد ساق المستشرق ستوبرت أيضا حججا واهية ليدلل بها على قصة الأخذ عن اليهود، وزاعما أن النبى ﷺ لم يكن أميا وأنه ﷺ كتب صلح الحديبية بنفسه، وذلك كى يبرهن أن النبى ﷺ قد قرأ توراة اليهود، وتأثر بها، ونقل عن اليهود عقيدة التوحيد.

نقول وبالله التوفيق:

لعل القارىء يلاحظ أن الزعم مبنى على مجرد الظن والتخمين، وذلك مما يتعارض مع أبسط قواعد البحث العلمى الجاد، ومما يدحض افتراءات ستوبرت فى هذا الشأن: أن كتب السنة الصحيحة المعتبرة لدى المسلمين تشهد أن على بن أبى طالب رضى الله عنه هو الذى قام بكتابة الصلح، ويظهر ذلك من الحديث الصحيح الذى أخرجه الإمام مسلم: أن النبى ﷺ أمر عليا أن يمحو كلمة رسول الله عندما أنكروها المشركون، وقالوا له: لو كنا نعلم أنك رسول لم نقاتلك.

والقصة أخرجها مسلم من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه كالآتى:

«كتب على بن أبى طالب الصلح بين النبى ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية فكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا تكتب

رسول الله ، فلو نعلم أنك رسول لم نقاتلك ، قال النبي ﷺ عليه وسلم لعلي : امحه . فقال : ما أنا بالذي أمحاه ، فمحاه النبي ﷺ بيده»[1] .

وفي بعض طرق الحديث عند مسلم أيضا : « فأمر — أي رسول الله ﷺ — عليا أن يمحاه ، فقال علي : لا والله لا أمحاه فقال رسول الله ﷺ : أرني مكانها ، فأراه مكانها ، فمحاه وكتب — أي علي — ابن عبد الله»[2] .

ولقد ورد في القرآن الكريم ، أن النبي ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب : قال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل)[3] .

ولقد بينت السنة الشريفة وتواتر عند المسلمين : أن النبي ﷺ كان أميا ويدلنا على ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري ، في حديث طويل — من حديث عائشة رضي الله عنها وفيه « . . جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك وقال : اقرأ قال : ما أنا بقارىء — قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ قلت ما أنا بقارىء . .»[4] .

جاء في شرح ابن حجر لقوله ﷺ : « ما أنا بقارىء » الآتي : « ما نافية ، إذا لو كانت استفهامية لم يصح دخول الباء ، وإن حكي عن الأخفش جوازه فهو شاذ ، والباء زائدة لتأكيد النفي ، أي ما أحسن القراءة .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب صلح الحديبية : ١٢/١٣٥

(٢) أخرجه مسلم في الكتاب والباب السابقين ١٢ / ١٣٥ (المرجع السابق)

(٣) سورة الأعراف ١٥٧

(٤) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ : ١/٢٢

ولقد نقل ابن حجر قول الطيبي : إن ما أنا بقارىء يفيد التقوية والتأكيد ، والتقدير : لست بقارىء البتة »[1] .

أما موضوع تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فمعروف لدى المسلمين بأن ذلك كان بأمر من الله سبحانه وتعالى ، كما جاء في سورة البقرة : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون »[2] .

ولقد وردت القصة ، أيضا في السنة الصحيحة ، ويدلنا على ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري بسنده ، من حديث البراء : « أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده — أو قال أخواله — من الأنصار ، وأنه ﷺ صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا ، أو سبعة عشر شهرا ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن صلى معه ، فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة ، فداروا — كما هم — قبل البيت ، وكان اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب ، فلما وجه قبل البيت أنكروا ذلك »[3] .

ومما يبطل زعم ستوبرت : أن النبي ﷺ كان قد يئس من انضمام

(١) فتح الباري ١/٢٤

(٢) سورة : آية ١٤٤

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان ، باب الصلاة من الإيمان ١/٩٥

اليهود إليه ولذلك غير القبلة : أنه ﷺ كان يدعو اليهود كغيرهم من الكفار حتى بعد تحويل القبلة ، فإن تحويل القبلة كان بعد هجرة الرسول ببضعة عشر شهرا كما هو واضح من الحديث ، وكما أفادنا بذلك ابن كثير فى تفسيره ، أما استمرار دعوته ﷺ لليهود حتى بعد تحويل القبلة إلى البيت الحرام ، فتوضحه الأحاديث النبوية الكثيرة : ومنها الحديث الذى أخرجه البخارى بسنده ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما نحن فى المسجد خرج النبى ﷺ فقال : انطلقوا إلى يهود ، فخرجنا حتى جئنا بيت المدراس فقال : أسلموا تسلموا ، واعلموا أنما الأرض لله ورسوله ، وإنى أريد أن أجليكم من هذه الأرض ، فمن يجد منكم بما له شيئا فليبعه ، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله »[1] .

وهذه القصة تدل على أنه ﷺ ظل يدعوهم إلى الإسلام حتى قبل أن يجليهم من المدينة بعد فتح خيبر .

أما زعم جويتين بأنه ﷺ قد نقل التوحيد عن اليهود : فيبطله ما رأيناه سابقا من أن النبى ﷺ كان يأمر صحابته بعدم تصديق أهل الكتاب ، وعدم الأخذ عنهم .

من ذلك الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى بسنده ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال الرسول ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا « آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم »[2] .

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجزية والموادعة ، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب ١/٧٢٠

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب =

وحديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء ؟ وكتابكم الذى أنزل على رسول الله ﷺ أحدث تقرؤونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم : أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم . لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم »[1] .

إذن فإن الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فى شأن التوحيد ، والتى طعن فيها جويتين وصاحباه ستويرت وغيوم « قد وردت فى كتب السنة الصحيحة ، بل فى أصح كتابين وهما صحيحا البخارى ومسلم ، وقد تلقت الأمة الإسلامية هذين الكتابين بالقبول التام . لأن صاحبيها من أوثق المحدثين ولأن الأحاديث الواردة فيهما متصلة السند إلى رسول الله ﷺ ، وقد جمعت جميع شروط الصحة التى اشترطها المحدثون لقبول الحديث النبوى الشريف ، من اتصال السند ، وعدالة الرواه ، وضبطهم ، وعدم الشذوذ وعدم العلة .

أما أسفار التوراة المنسوبة لسيدنا موسى عليه السلام ، فهى منقطعة[2] السند منذ زمن عزرا مؤلف التوراة — بزعم اليهود — والذى عاش بعد سيدنا موسى بعدة قرون ، كما أنها بجانب ذلك متضاربة

= قوله تعالى وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ج ٩ ص ١٣٦ ط الشعب

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ج ٩ ص ١٣٦ ط الشعب .

(٢) إظهار الحق : الإمام العلامة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن العثمانى الكيرانوى — مراجعة عبد الله الأنصارى ج ١ ص ٥٦—٥٨ بتصرف يسير .

المتن ، متناقضة تناقضاً كبيراً بحيث لم يستطع أحبار اليهود حتى محاولة الجمع بينها فى صورة من الصور .

وبهذا يبطل زعم المستشرقين الثلاثة : أن النبى ﷺ كان قد أخذ للتوحيد عن أحبار اليهود ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه .

أما زعم سنكلير تسدل ، وجولد زيهر المتجسد فى أن بعض عقائد المسلمين ورسومهم وفرائضهم مأخوذة من مذاهب العرب ورسومهم فى أيام الجاهلية قبل الإسلام ، وأن محمداً كان قد عزم على إنقاذ العرب وتحريرهم من عبادة الأصنام على أساس أن ذلك صادر من تلقاء تفكيره وتخطيطه ، وإيتاء كل عادة قديمة يرى موافقتها ومناسبتها لوجود علاقة وارتباط ومشابهة عجيبة - على حد زعمهما - بين التعاليم والأخبار الواردة فى القرآن والأحاديث ، وبين التعاليم والقصص والحكايات التى كانت متداولة بين اليهود . . .

ونحن لا ندهش على اقتباسه هـذه التعاليم من التوراة والإنجيل بل الأحرى أن نشكره ، غير أن وجود هذه الحقائق فى القرآن لا يثبت إعجازه ولا هو دليل على وحيه ... إلخ ..

فلو كان محمد هو أول من قال بوحدانية الله لوجب علينا بدون نزاع أن نؤمن به ، أما وقد سبقه إلى ذلك كثيرون من قديم الزمان فليس له علينا حجة .. أ . هـ .

فنقول وبالله التوفيق .

أولا : نحن لا نسلم بأن بعض عقائد المسلمين ورسومهم وفرائضهم مأخوذة من مذاهب العرب ورسومهم فى أيام الجاهلية قبل الإسلام ، ذلك لأن نبينا محمداً ﷺ هو رسول من الله عز وجل ، ومعلوم أن الرسول لا يأخذ تعاليمه إلا من الله عز وجل .

يدل على هذا من القرآن الكريم قوله تعالى فى سورة النجم عن شأن الوحى الذى يتلقاه النبى ﷺ « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » ، (الآيات من ٣ — ٥) .

ويتفق هذا مع ما ذكره الله عز وجل لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام فى التوراة عن وصف النبى الذى سيبعث من وسط إخوة بنى إسرائيل وهم بنو إسماعيل ، فقال فى العدد الثامن عشر من الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنية وهكذا : « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه » .

كما يتفق معه ما ذكره الإنجيل على لسان المسيح عليه الصلاة والسلام عن وصف الرسول الذى سيأتى من بعده ، فقال فى العدد السادس عشر وما بعده من الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا .

« وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق . لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به . ويخبركم بأمور آتية . وذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم » .

ثانيا : نحن لا نسلم بأن الرسول ﷺ كان قد عزم على إنقاذ العرب وتحريرهم من عبادة الأصنام ، وهدايتهم إلى عبادة الله وحده ، على أساس أن ذلك صادر من تلقاء تفكيره وتخطيطه ، ولكن نسلم بأنه قد فعل ذلك تنفيذاً لأمر الله عز وجل .

ويدل على ذلك قوله تعالى لنبيه فى سورة آل عمران آية ٩٥ :

« قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » ، وقوله تعالى فى سورة النساء آية ٣٦ : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » .

ونحن لا ننكر أن النبي ﷺ كان يعرف أن العرب كانوا فى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام مؤمنين بوحدانيته تعالى كغيرهم من الأمم الذين آمنوا بربهم وآمنوا بنبيهم الذى أرسل إليهم .

كما لا ننكر أنه ﷺ كان يعرف أن العرب فى الجاهلية حافظوا على كثير من العادات والرسوم التى جاء بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولكنهم حرفوها وبدلوها بأشياء من عند أنفسهم ، وأشركوا بالله سبحانه فعبدوا الأصنام التى لا تضر ولا تنفع وزعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى ، لذلك أنزل الله تعالى قوله فى سورة النساء آية ١٢٥ : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

وقوله تعالى فى سورة الأنعام آية ١٦١ وما بعدها : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » . وقد أنزل الله هذه الآيات لتبين للعرب فى الجاهلية أنهم ليسوا على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فإن إبراهيم ليس من المشركين فى حين أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، ولكن تهديهم إلى ملة إبراهيم الحقيقية .

أما ما وجد من التشابه بين الفرائض والرسوم والآداب التى جاء بها الإسلام ، وبين ما وجد منها عند العرب فى الجاهلية ، فليس فى ذلك ما يؤدى إلى الغرابة بمكان ، لأن المشرع واحد وهو الله سبحانه وتعالى ، إذ أرسل إلى العرب رسلا مبشرين ومنذرين قبل محمد ﷺ : كإبراهيم ، وإسماعيل ، وهود ، وصالح جاءوا بالأعمال والفرائض والشعائر الدينية ،

ولكن العرب حرفوها بعد وفاة هؤلاء الرسل وبعد مرور الأزمنة والأعصر ، ثم أرسل إليهم محمداً ﷺ فجاء بمثل ما جاء به من سبقه من الرسل وأضاف إليه ما يكمله ، وأزال منه ما ليس منه بأمر الله وإذنه .

ثالثا : إن التشابه بين التعاليم والقصص والأخبار الواردة فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وبين التعاليم والقصص والحكايات التى جاء بها الكتاب المقدس : ذلك كله راجع إلى أن الله هو الذى أرسل الرسل جميعهم ، وأنه هو الذى أنزل الكتب السماوية كلها ، وهو الذى شرع الدين للرسل والأنبياء وأتمهم وجعل القرآن الكريم مصدقا لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمناً عليها .

قال المستشرق الفرنسى المنصف « الكونت هنرى دى كاسترى » فى كتابه « الإسلام خواطر وسوانح » فى ص ٢٣ : « إن دين الأنبياء كلهم واحد . فهم متحدون فى المذهب منذ آدم إلى محمد ، وقد نزلت أربعة كتب سماوية ، وهى الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن ، والقرآن بالنسبة إلى الإنجيل كالإنجيل بالنسبة إلى التوراة أو أن محمداً بالنظر إلى عيسى كعيسى بالنظر إلى موسى ، ولكن الأمر الذى تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوى ينزل للناس ، وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد ﷺ ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلا .

إذا تقرر هذا لم يعد هناك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة ، فمحمد كعيسى قال إنه بعث ليتمم رسالة من قبله لا ليبيدها ، فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه ، ولذلك كان يصرح على الدوام بأنه يعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله ، وكان يسمع صوتا من السماء يقول له : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط

وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما »[1] . « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »[2] « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »[3] .

على أن بعض المشابهات لا تحتاج إلى مثل هذا التفسير ، إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بنى إسرائيل ، وكان يعبد الله الذى عبدوه . فلا عجب أن تشابهت ألفاظ التضرعات و تجانست أنواع الأدعية .

رابعاً : لو جعلنا التشابه فى التعاليم بين الكتاب السابق والكتاب اللاحق قاعدة لضرورة حدوث الاقتباس لأمكن أن يقال إن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ليس برسول من عند الله سبحانه وتعالى على هذا الزعم ، لأن هناك تشابها كبيراً بين تعاليمه فى الإنجيل ، وبين تعاليم موسى عليه السلام فى التوراة ، وذلك كالذى هو موجود فى قول موسى فى التوراة ، فى العدد الرابع وما بعده من الإصحاح السادس من سفر التثنية هكذا : إسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد ، فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ، ولتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك » . وبين ما هو موجود كذلك فى قوله

(١) سورة النساء آية ١٦٣ — ١٦٥
(٢) سورة الأنبياء آية ٢٥
(٣) سورة النحل آية ٤٣ ، ٤٤

عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلاة فى الإنجيل فى العدد التاسع والعشرين من الإصحاح الثانى عشر من إنجيل مرقس هكذا : « إن أول كل الوصايا هى إسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك ، وكالتشابه بين ما ورد فى المزمور الحادى والتسعين من العهد القديم فى العدد العاشر إلى العدد السادس عشر عن نجاة المسيح عليه الصلاة والسلام من أيدى أعدائه اليهود حيث قال هكذا : « لا يلاقيك شر ولا تدنوا ضربة من خيمتك ، لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقك ، على الأيدى يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك . . . . . لأنه عرف اسمى ، يدعونى فأستجيب له معه أنا فى الضيق أنقذه وأمجده من طول الأيام أشبعه وأريه خلاصى .

وبين ماجاء فى العدد السادس وما بعده من الإصحاح الرابع من إنجيل متى عن نجاة المسيح عليه الصلاة والسلام أيضا من أيدى أعدائه ، وفى العدد التاسع وما بعده من الإصحاح الرابع من إنجيل لوقا حيث قالا على لسان إبليس موجها كلامه إلى المسيح عليه الصلاة والسلام هكذا « إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل ، لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك ، وأنهم على أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك ، فأجاب يسوع وقال له إنه قيل لا تجرب الرب إلهك » .

ولكن فكرة الاقتباس بسبب التشابه فى التعاليم وإن كانت جائزة بين الناس العاديين فى كتبهم ومؤلفاتهم فلا تجوز بين الأنبياء والرسل لمخالفتها الحق الواقع ، ولأن الأنبياء لا يتكلمون إلا بما أمرهم الله عز وجل .

خامسا : ليس من المعقول والحكمة ، بل ليس من العدل والإنصاف

أن يقال إن محمدا استقى معارفه وتعاليمه من العناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، فى حين أنه قد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه ﷺ جاء بقرآن لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بذلك المثل، وأتى بمعجزات كثيرة تفوق معجزات إخوانه الأنبياء السابقين. وشهدت له الكتب السماوية أنه رسول الله عزوجل، وتنبأ له العلماء الراسخون قبل ولادته وبعدها بأنه سيكون له شأن عظيم فى المستقبل.

ولنكتف هنا بذكر الآيات من التوراة والإنجيل التى أثبتت رسالة محمد ﷺ، وبالتالى أكدت أنه ﷺ لم يستق معارفه من غير الله سبحانه وتعالى، وإليك هذه الآيات من التوراة:

١ — قال فى العدد الثانى من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية من العهد القديم هكذا: « جاء الرب من سيناء. وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران ».

فمجىء الرب من سيناء: إعطاؤه التوراة لموسى عليه الصلاة والسلام، وإشراقه من سعير: إعطاؤه الإنجيل لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وتلألؤه من جبل فاران: إنزاله القرآن على محمد ﷺ، ومعلوم أن فاران جبل من جبال مكة.

ويؤيد هذا ما ورد فى العدد العشرين وما بعده من الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين — حكاية عن إسماعيل ومسكنه — هكذا: « وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية، وكان ينمو رامى قوس، وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من مصر ».

ويتضح من هذه الآية الأخيرة أن الذى سكن أرض فاران هو سيدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وفى الآية الأولى أن الله سيبعث رسولا بعد عيسى عليه الصلاة والسلام من أرض فاران، وستكون رسالته عامة متلألئة.

٢ — وقال فى العدد السابع عشر وما بعده من الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنية هكذا: « قال لى الرب قد أحسنوا فى ما تكلموا، وأقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامى فى فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه، وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه به أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى، وإن قلت فى قلبك كيف نعرف الذى لم يتكلم به الرب، فما يتكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب، بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه.

ويؤخذ من هذا الكلام أن الله سيبعث رسولا مثل موسى عليه الصلاة والسلام من وسط إخوة بنى إسرائيل وهم بنوا إسماعيل، ويعطى لهذا الرسول كتابين:

أحدهما: كتاب يكون بكلام الله، ولكن باسم هذا الرسول وبتعبيره « أى الحديث النبوى ».

وثانيهما: كتاب يكون بكلام الله وباسمه وبأسلوبه « أى القرآن الكريم، كما يؤخذ من هذا الكلام أن هناك من يدعى النبوة كذبا غير الرسول الحقيقى، والذى يدل على كذب المدعى هو عدم موافقة كلامه للواقع ولما يحدث .. ومما يدل على أن هذا الرسول الحقيقى من بنى إسماعيل وليس من بنى إسرائيل قول صاحب التوراة فى العدد العاشر من الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنيه هكذا، ولم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه، إذ تبين هذه الآية أنه ليس فى بنى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه.

ولا شك أن سيدنا محمدا ﷺ كمثل موسى عليه الصلاة والسلام فى

جملة وجوه : كلاهما نشأ فى بيوت أعدائهما، وكلاهما ظهر بين عبدة الأصنام، وكل منهما رفضه قومه أولا ثم عادوا فقبلوه، والاثنان هربا من وجه أعدائهما، فموسى عليه الصلاة والسلام هرب إلى مدين، ومحمد ﷺ هاجر إلى يثرب، « المدينة »، وكل منهما نزل إلى ساحة القتال وحارب الأعداء وعمل المعجزات، وكل منهما قابل الرب وجها لوجه، فموسى عليه الصلاة والسلام قابل الرب فى الأرض فى الطور، ومحمد عليه الصلاة والسلام قابل الرب فى السماء.

٣ — وقال فى العدد العاشر من الإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين هكذا : « لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب.

ومعنى الآية : لا يزول صاحب قضيب الملك والرياسة من أبناء يهوذا وصاحب الشريعة من ذريته أيضا حتى يأتى شيلون الذى تخضع له الشعوب، وفى هذه الآية إشارة إلى نبوة سيدنا محمد ﷺ لأنه ما اجتمع الشعوب إلا إليه ﷺ لأن رسالته عامة، ولا يصح أن يراد بشيلون هنا المسيح عليه الصلاة والسلام، لأنه من أبناء يهوذا، ولأن رسالته خاصة ببنى إسرائيل بدليل قول المسيح فى العدد الرابع والعشرين من الإصحاح الخامس عشر من إنجيل متى هكذا : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ».

٤ — وقال فى العدد الثالث عشر من الإصحاح الحادى والعشرين من سفر أشعياء هكذا : « وحى من جهة بلاد العرب فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين ياقوافل الدادنيين، هاتوا ماء لملاقاة العطشان، ياسكان أرض تيماء وأوفوا الهارب بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدود، ومن أمام شدة الحرب، فإنه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار وبقية عدد فى أبطال بنى قيدار تقل لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم ».

ففى هذه الآيات إشارة إلى وحى أوحاه الله إلى محمد ﷺ وإلى هجرته إلى يثرب « المدينة » بسبب تآمر كفار قريش على قتله وعلى أصحابه، وليس المراد به الوحى الذى أوحاه الله إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، لأنه من العرب بل هو من بنى إسرائيل ولم يهاجر من بلده إلى بلد أخرى.

٥ — وقال فى العدد العاشر وما بعده من الإصحاح الثانى والأربعين من سفر أشعياء هكذا : « غنوا للرب أغنية جديدة، تسبيحة من أقصى الأرض أيها المنحدرون فى البحر وأهل الجزائر وأهل المدن والبرارى، لترفع من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر، الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه.

قال الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه « إظهار الحق »، ص ٤ ح ٢ والتسبيحة الجديدة عبارة عن العبادة على النهج الجديد التى هى فى الشريعة المحمدية، وتعميمها على سكان أقصى الأرض وأهل الجزائر وأهل المدن والبرارى : إشارة إلى عموم نبوته ﷺ من أولاد قيدار بن إسماعيل، وقوله : « من رؤوس الجبال يصيحون : إشارة إلى العبادة المخصوصة التى تؤدى فى أيام الحج، يصيح ألوف ألوف من الناس بلبيك اللهم لبيك.

وقوله « ويخبروا بتسبيحه » فى الجزائر : إشارة إلى الآذان يخبر به ألوف ألوف فى أقطار العالم فى الأوقات الخمسة بالجهر، وقوله « الرب كجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته : يشير إلى مضمون الجهاد إشارة حسنة بأن جهاد تابعيه يكون لله وبأمره خاليا من حظوظ الهوى النفسانية.

أما الآيات فى الإنجيل التى تشهد بنبوة محمد ﷺ وتقرر أنه لن يستحق معارفه من غير الله سبحانه وتعالى فمنها ماسنذكره لك الآن :

١ — قال سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام للحواريين فى العدد الثالث عشر وما بعده من الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا هكذا :

وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل ما يسمع يتكلم به يخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم.

قال الأستاذ إبراهيم خليل أحمد فى كتابه « محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن » ص ٤٦.

« ولعلك أيها القارىء العزيز تستطيع أن تجمع بين قول عيسى فى هذه الآية وقول موسى فى آية « واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به » فتجد الأضواء تسلط على نبى سيأتى .. من هذا النبى ؟ لم يكن موسى ، ولم يكن عيسى . فمن هذا النبى الكريم ؟ إن الأضواء تتجمع فى بؤرة واحدة لتكشف عن شخصية النبى . ولعل سيدنا عيسى عليه السلام يزيد وضوحا فى تعريفه لهذا النبى .

فيخبرنا عنه أنه « روح الحق » ولسيدنا محمد أسماء منها « روح الحق » ويحدثنا الله عن الرسول فى القرآن الكريم فيقول : « وما ينطق عن الهوى إن إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » وهذا يتفق مع قول الرسولين الكريمين : موسى وعيسى عليهما السلام : « لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به » . « وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به » انتهى ما ذكره الأستاذ خليل .

٢ — وذكر سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام قرار الله عز وجل بانتزاع النبوة والكتاب من ذرية إسحاق إلى ذرية أخرى ، فقال لهم يسوع فى العدد الثانى والأربعين وما بعده من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى هكذا : « قال لهم يسوع أما قرأتم قط فى الكتب الحجر الذى رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره » .

قال الأستاذ إبراهيم خليل أحمد فى كتابه السابق فى ص٤٩ : ولعلك أيها القارىء العزيز استطعت أن تدرك المقصود بالحجر : إنه مجاز عن الرسول الكريم كما أن فاران مجاز عن الأرض التى سكنها جد الرسول سيدنا إسماعيل عليه السلام . انتهى .

ويؤيد هذا خبر النبوة العظمى التى تنبأ بها ملك نبى كما ذكره الأستاذ خليل أيضاً فى كتابه المذكور ص ٤٩ ، وعبر عنها نبى من بنى إسرائيل هو سيدنا دانيال نبى الله كما ورد فى العدد الحادى والثلاثين وما بعده من الإصحاح الثانى من سفر دانيال هكذا : « أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم ، هذا التمثال العظيم البهى جداً وقف قبالتك ومنظره هائل ، رأس هذا التمثال من ذهب جيد ، صدره وذراعاه من فضة ، بطنه وفخذاه من نحاس ، ساقاه من حديد ، قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف ، كنت تنظر إلى أن قطع حجراً بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما ، فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا ، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان ، أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها ، هذا هو الحلم فيخبرنا بتعبيره قدام الملك » .

هذه الحقيقة التنبؤية التى وردت فى سفر دانيال تؤيدها الحقيقة التاريخية إبان بزوغ الإسلام وظهوره ، وتقويضه للإمبراطوريتين : إمبراطورية الروم وإمبراطورية الفرس : وامتداد الإسلام شرقاً ، وغرباً ، وشمالا وجنوباً .

سادسا : نحن لا ندعى أن محمداً ﷺ هو أول من قال بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، فإنه قد جاء بها أيضا الأنبياء والرسل الذين سبقوا محمداً ﷺ : كآدم ، ونوح ، وشعيب ، وإبراهيم وإسماعيل ، وهود ، وصالح .

وموسى ، وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وذلك لأن دين الأنبياء واحد ، من عهد آدم عليه الصلاة والسلام إلى عهد محمد ﷺ إلى أبد الآبدين ، وفى هذا القول يقول الله تعالى فى سورة الشورى آية ١٣ ، ١٤ « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » .

قال القرطبى فى تفسيره : « المراد بالدين هنا هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه ، وبيوم الجزاء وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً ، وليس المراد به الشرائع التى هى مصالح الأمم على حسن أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة . . . قال تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » ، اهـ ج ١٦ ص ١٠ .

ولنذكر هنا ما ذكره القرآن الكريم والكتاب المقدس عن دعوة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إلى توحيد الله سبحانه وتعالى : فقال الله عز وجل عن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام فى سورة الأعراف آية ٥٩ : « لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ، وفى سورة المؤمنون آية ٢٣ : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون » .

وقال عن دعوة شعيب عليه الصلاة والسلام فى سورة الأعراف آية ٨٥ : « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله

غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » ، وفى سورة هود آية ٨٤ : « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » .

وقال عن دعوة هود عليه الصلاة والسلام فى سورة الأعراف آية ٦٥ : « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون » ، وفى سورة هود آية ٥٠ : « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلى غيره إن أنتم إلا مفترون » .

وقال عن دعوة صالح عليه الصلاة والسلام فى سورة الأعراف آية ٧٣ : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » ، وفى سورة هود آية ٦١ : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب » .

وقال عن دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى سورة الأنعام الآيات من ٧٤—٧٩ « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » إلى قوله تعالى : « يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

وقال عن دعوة يعقوب عليه الصلاة والسلام فى سورة البقرة آية ١٣٣ « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون

من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » .

وقال عن دعوة محمد ﷺ فى سورة آل عمران آية ٦٤ « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، وقال الكتاب المقدس عن دعوة موسى عليه الصلاة والسلام إلى توحيد الله عز وجل فى العدد الرابع من الإصحاح السادس من سفر التثنية من العهد القديم هكذا : « إسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد ، فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ، ولتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك » .

وفى الكتاب المقدس أيضا عن دعوة المسيح عليه الصلاة والسلام إلى توحيد الله سبحانه وتعالى فى العدد التاسع والعشرين من الإصحاح الثانى عشر من إنجيل مرقس هكذا : « إن أول كل الوصايا هى إسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك » .

ونحن لا ننكر أن المذهب الأصلى للعرب هو وحدانية الله عز وجل ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لما أرسل الرسل إلى العرب أمرهم أن يدعوا قومهم إلى عبادة الله وحده ، ويرشدهم إلى طريق الخير والهدى وينهاهم عن طريق الشر والضلال .

ومع تمادى الأزمنة ومرور الأعصر فإن العرب فى الجاهلية قبل الإسلام

تحولوا من مبدأ الوحدانية إلى مذهب الشرك وعبادة الأصنام ، فأشركوا الله غيره من الآلهة المصطنعة ، وعبدوها وظنوا أنها شركاء لله تعالى فى الإكرام والعبادة الواجبة ، وكانوا يقولون : نحن لا نعبد هذه المعبودات الثانوية كما نعبد الله الحى القيـــوم بل نعبدها كوسطاء وشفعاء ليقربونا إلى الله زلفى .

كما لا ننكر أن المذهب الأصلى لليهود والنصارى — الوحدانية أيضاً ، وهى التى أمر الله بها موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، ثم انحرف أتباعهما بعد مرور الأعصر وتمادى الأزمنة كما ذكرناه ، إذ جعل اليهود عزيزاً ابن الله واتخذ بعض النصارى المسيح ابن الله أوعدوه هو الله نفسه. يؤيد هذا ما تنبأ به المسيح عليه الصلاة السلام من انحراف كثير من أتباعه عن مبدأ الوحدانية ، فقال فى العدد الحادى والعشرين ومابعده من الإصحاح السابع من إنجيل متى هكذا : « ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات ، كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة ، فحينئذ أصرح لهم أنى لم أعرفكم قط ، إذهبوا عنى يافاعلى الإثم » وكذلك عمت الضلالة عند الأمم الأخرى فانحرفوا عن سواء السبيل . وضلوا عن معرفة الإله الحقيقى ، فالمجوس قالوا : إن الإله هو هذا العنصر المسمى ناراً فعبدوها ، وشخصه الوثنيون فعبدوا التماثيل المجسمة الصامتة ، ورأى آخرون كوكب الشمس أكبر الكواكب فى نظرهم وأعظمها تأثيراً فى العوالم الأخرى فعبدوها ، ورأى الآخرون رجالا أعطاهم الله من ذكاء العقل مابهر عقولهم فعبدوها فى حياتهم وبعد مماتهم ، وقالوا بحلول أرواحهم فى الحيوانات فعبدوها ، وهكذا إلى آخر ما جاء فى العقائد المختلفة من التقاليد الخاصة بمعرفة الله تعالى ، وقال آخرون لا هذا ولا ذاك ، وليس فى العالم إله يدبر الكون كما يراه أصحاب المعتقدات المختلفة .

وهكذا بعث الله محمداً ﷺ إلى الناس كافة ، ليكون رحمة للعالمين وليعيد الناس إلى ما كان عليه الأنبياء والرسل من توحيد الله سبحانه وتعالى ، وليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويبين لهم ما نزل إليهم لعلهم يهتدون .

ولنذكر هنا ما ذكره المستشرق الفرنسي المنصف « الكونت هنري دي كاسترى » من حيث إشادته بفكرة التوحيد في الإسلام وشهادته بعدم اقتباس محمد ﷺ مبدأ الوحدانية من الكتب المقدسة الأخرى . فقال في كتابه الإسلام خواطر وسوانح » . ص ١٦ .

« وقد ثبت أن محمداً ﷺ لم يقرأ كتاباً مقدساً ، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه . . . ولقد نعلم أنه مر بمتاعب كثيرة ، وقاسى آلاماً نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته ، لقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين ، ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه المسيحيون ، وكان بغضها متمكناً من قلبه ، وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه ﷺ ، ولكي ينفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله تعالى اعتكف في جبل حراء ، وأرخى العنان لفكره يجول في بحار التأملات عابداً متهجداً ، ومضت عليه بهذه الحال ليال من ليالي هاتيك البقاع التي تملأ الناس انشراحاً ، حتى جاء عنها في لسان العامة « أن الملائكة تسأل ربها لو أذن لهم فيهبطوا من السماء لقضاء ليالهم على الأرض إعجاباً بجمال الليل فيها وشوقاً إلى صفاته وجلاله .

ولعمري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين ، وهو في ريعان الذكاء ، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيل وقوة الإدراك لا بوضع المقدمات وتعليق النتائج عليها ، ما كان إلا أن يقول مراراً ويعيد تكراراً هذه الكلمات « الله أحد الله أحد » ، كلمات

رددها المسلمون أجمعون من بعده ، وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد ، ولم يزل عقله مشتغلا حتى ظهر هذا الفكر في كلامه على صور مختلفة جاءت في القرآن .

لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك ولم يكن له كفواً أحد » ، وكانت مترادفات اللغة العربية تساعده بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامي الذي دل عليه ، ومن تلك الأفكار وتلك العبادة تولدت كلمة الإسلام لا إله إلا الله » ، ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد منزه عن النقائص يكاد العقل يتصوره . وهو اعتقاد قوي يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به من غيرهم من القبائل والشعوب ، أولئك حقاً هم المؤمنون كما يسمون أنفسهم بألسنتهم .

ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي ﷺ من مطالعته التوراة والإنجيل ، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته ، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته . . » انتهى

ويقول صاحب كتاب أدلة اليقين في ص ٣٤٤ ما نصه :

« وبعد فمن ذا الذي يستطيع أن يقول إن الأنبياء السابقين قد جاءوا بتوحيد الإله على الوجه الذي فهمه المستشرقون والمبشرون المسيحيون .

ألم يكن الإله في زعمهم أقانيم ثلاثة ، ولا معنى لقولهم هذا إلا الاعتراف بتعدد الآلهة أو بتركيب الإله تعالى ، وكلاهما ينافي التوحيد بالبداهة التي لا ريب فيها عند أرباب العقول السليمة الخالية من التأثر بسلطان الاعتقاد الفاسد ، فإذا كان المبشرون يبحثون عن توحيد الإله الصحيح فإنهم

يجحدونه فى ذلك الدين القيم دين الإسلام الذى يصف الإله بأنه ليس كمثله شىء وينزهه عن الحلول والتجسد . . . .

ذلك الذى جاء به القرآن هو التوحيد الخالص ، أما غيره فهو وثنية معقدة لا تقل عن وثنية المشركين الذين يقول عنهم « سنكاير تسدل » أنهم كانوا موحدين ، لأنه يعتقد أن توحيد الإله لا ينافى القول بتعدد ذاته وتركيبها ، كما لا ينافى عبادة البشر والبقر والحجر ، فيصح لمن يعبد عيسى ابن مريم — وهو إنسان يأكل ويشرب — أن يكون موحداً ، وكذلك من يعبد الأحجار التى ينحتها بيده ويسجد لها ويعتقد أنها تمطر ، إذا أصابه القحط ، وترزقه إذا ضاق به الحال ، فإنه يكون موحدا .

أليس ذلك من المضحكات !! وأغرب من هذا أن يقول سنكاير تسدل: إن مشركى العرب كانوا يعرفون الله تعالى ويمجدونه ؟ وليت شعرى إذا كان المشركون كذلك فما الذى دعاهم لمقاومة سيدنا محمد ﷺ تلك المقاومة التى لا يثبت أمامها إلا من أيده الله العليم القدير . ألم يرض المشركون بأن يبايعوا محمداً بالملك ويشاطروه مالهم ويخضعوا لكل ما يأمرهم به إذا كف عن سب آلهتهم ؟

نعم إنهم رضوا بذلك ، ولكنه عليه أفضل الصلاة والسلام أبى إلا أن ينفذ ما أمره الله به من إزالة الأوثان والقضاء عليها مهما كلفه ذلك حتى ولو قتل فى سبيله ، فهل كان الخلف بين المشركين ومحمد ضئيلا إلى هذا الحد فاضطهدوه وأخرجوه من وطنه ، ولم يتركوا فرصة تمر بدون أن يتآمروا على قتله لا لشىء سوى أنه قال لهم إننى رسول من عند الله أقول بما تقولون به من توحيد الله : بالضيعة العقول الإنسانية وياجرأة المشوهين . . أ . هـ .

٦ — مقارنة حول توحيد الله بين الإسلام واليهودية :

أولا : توحيد الله سبحانه وتعالى وعدم الشرك به :

إن السلف الصالح من المسلمين وخلفهم قد تمسكوا بعقيدة التوحيد كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ودافعوا عنها ضد أصحاب البدع والأهواء ، وضد المفسدين الحاقدين على الإسلام .

ولقد سبق أن رأينا أن التوحيد فى الإسلام هو إفراد الله بالعبادة والطاعة والإلوهية ، وتنزيهه عن الشرك ، وتوحيد الأسماء والصفات ، ولقد بين القرآن الكريم ذلك فى كثير من السور التى أوردنا بعضها سابقاً .

كما بينه ﷺ فى كثير من أحاديثه ، ومنها الحديث الذى أخرجه الإمام البخارى بسنده ، من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت النبى ﷺ عن أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : لن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تزانى بحليلة جارك(١) .

والحديث الذى أخرجه ابن ماجة بسنده ، من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ قرأ « أو تلا » هو أهل التقوى وأهل المغفرة »(٢) . فقال : قال الله عز وجل « أنا أهل أن اتقى ، فلا يجعل معى إله آخر ، فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً آخر فأنا أهل أن أغفر له »(٣) .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى فلا تجعلوا لله أندادا ، جـ ٩ ص ١٨٦ .

(٢) سورة المدثر آية ٥٦ .

(٣) أخرجه بن ماجة فى كتاب الزهد ١٤٣٧/٢ حديث رقم ٤٢٩٩ .

ومنها الحديث الذى أخرجه الإمام مسلم بسنده ، من حديث معاذ بن جبل . وضى الله عنه قال : « كنت ردف رسول الله على حمار يقال له عفير ، قال . فقال : يا معاذ ، تدرى ماحق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . قال : قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس قال : لا تبشرهم فيتكلوا »[1] .

والحديث الذى أخرجه الإمام مسلم أيضاً ، من حديث عبد الله رضى الله عنه ، قال : « لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)[2] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال الرسول ﷺ : ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه (يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)[3] ، »[4] .

والحديث الذى أخرجه مسلم كذلك بسنده ، من حديث عبد الرحمن ابن أبى بكرة ، عن أبيه قال : « كنا عند رسول الله ﷺ فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ - ثلاثا - :

الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، أو قول الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت »[5] .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب حق العباد على الله ١/٢٣٢

(٢) سورة الأنعام : آية ٨٢ .

(٣) سورة لقمان : آية ١٣ .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب صدق الإيمان وإخلاصه ١/٨١ .

(٥) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب أكبر الكبائر ١/٨١

إن هذه الأحاديث وأمثالها تحث على عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به .

إن التناقض الملموس فى متون التوراة يشكك فى أصالة ماورد فيها وبخاصة فى موضوع التوحيد ، فبينما تدعو بعض الأسفار إلى إفراد الله بالعبادة ، كالقول الوارد فى سفر أشعياء (إنك وحدك إله جميع ممالك الأرض ، أنت صنعت السموات والأرض) .

تذهب بعض الأسفار الأخرى إلى النقيض من ذلك تماماً ؛ حيث تجعل موسى إلهاً ، وجعلت أخاه هارون نبياً له ، فقد جاء فى سفر الخروج مايأتى : « فقال الرب لموسى : انظر قد جعلتك إلهاً لفرعون ، وهارون أخوك يكون نبيك »[1] .

كما أن بعض أسفار التوراة قد نسبت إلى الله سبحانه وتعالى الولد . وذلك فى قول مؤلف سفر الخروج ، حيث زعم أن سيدنا يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق هو ابن الله البكر ، وأن الله سبحانه وتعالى بزعمه قد قال « إن إسرائيل ابنى البكر »[2] .

لقد رد الإمام الماتريدى على الذين يدعون أنهم يوحدون الله تعالى ، ثم يشركون به مالم ينزل به سلطاناً ، ومن بينهم اليهود بقوله : « إن منهم من يقول بالبارى وقدم البارى ، ويجعل معه جميع الأعيان ، ومن يقول بالطينة والهيولى ، فيجعلها واحداً ، ثم أتلفه وجعل مالايحصى منه — أى من الهيولى — على الانتقال والفناء . ومن يقول بالواحد . . ويجعل جميع الخيرات أجزاء له . . واليهود حققوا له شبه الخلق ، فيكثر به

---

(١) سفر الخروج ١/٧ من الكتاب المقدس ١/١٠٧

(٢) سفر الخروج : ٢٢/٤ من الكتاب المقدس ١/١٠٣

العدد ، حتى بلغ قولهم إلى حد إمكان الولد . . وفى كل ذلك إبطال للتوحيد . .

أما قول فريق التوحيد — المسلمون — : إنه واحدى الذات ، إله حاجات الآحاد ، متعال عن معنى الآحاد ، وعما يوجب صفة الأعداد ، ويتمكن فيه صفة التغيير والزوال ، أو الحدود والنهاية ، موصوف بالقدم والقدرة . جل وعز عن التغيير والزوال »[1] .

ثانياً : إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة والنهى عن عبادة الأوثان :

لقد وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة تدعو الخلق إلى إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وإفراده بالطاعة والإخلاص ، والخوف والرجاء ، والتوكل ، والدعاء ، والمحبة الخالصة ، قال سبحانه وتعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[2] .

وقال سبحانه وتعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »[3] ،

وجاء فى الكتاب الذى بعث به النبى ﷺ إلى هرقل مايلى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[4] .

وفيه أيضاً قول هرقل لأبى سفيان « وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت :

---

(١) التوحيد وإثبات صفات الرب ١١٨ — ١٢١

(٢) سورة الذاريات : آية ٥٦ .

(٣) سورة النحل : آية ٣٦ .

(٤) سورة آل عمران : آية ٦٤ .

أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان »[1] .

إن إفراد الله بالعبادة يستلزم كذلك عدم إشراك أنبيائه معه ، أو عبادتهم كآلهة ، كما زعم مؤلف سفر الخروج ، حيث زعم أن الله سبحانه وتعالى قد جعل موسى إلهاً لفرعون . ولقد حذر النبى ﷺ من عبادة الأنبياء والأولياء والصالحين وذلك فى الحديث الذى أخرجه الإمام البخارى بسنده ، من حيث عائشة رضى الله عنها : أن النبى ﷺ قال فى مرضه الذى مات فيه : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجداً . قالت : ولولا ذلك لأبرزوا قبره ، غير أنى أخشى أن يتخذ مسجداً »[2] .

وإنه لمن الثابت لدى المسلمين من نصوص القرآن الكريم : أن إفراد الله بالعبادة كان محور دعوة جميع أنبياء الله ورسله ، وأنهم بلغوا رسالاتهم كما أمرهم الله .

قال تعالى : « لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »[3] .

وقال تعالى : « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره — أفلا تتقون »[4] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحى ١ / ٦٢ ، ٦٣ [من صحيح البخارى بشرح الكرمانى] .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ٣/٢٠٠ [من فتح البارى بشرح صحيح البخارى].

(٣) سورة الأعراف آية : ٥٩ .

(٤) سورة الأعراف آية : ٦٥ .

وقال تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم »[١] .

وقال تعالى : « فلما أتاها نودى ياموسى — إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى — وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى — إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى »[٢] .

وقال تعالى : « وما أرسلناك من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »[٣] .

لقد اعترف بعض من حرف التوراة — كما رأينا آنفا — بضرورة إفراد الله سبحانه وتعالى بالعباده ، فى حين ذهب بعضهم الآخر إلى الادعاء بأن أنبياء الله كانوا قد زينوا لبنى إسرائيل عبادة الأوثان ، ومن بين الأنبياء المتهمين بالشرك : سيدنا موسى ، وسيدنا هارون ، وسيدنا سليمان عليهم السلام .

ثالثاً — عدم تجسيم أو تشبيه الله سبحانه وتعالى بخلقه :

يصف السلف الصالح وخلفهم من المسلمين الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه من صفات كما جاءت فى القرآن الكريم ، أو بما وصفه به رسول الله ﷺ ، كما جاء فى السنة النبوية المطهرة ، مع عدم التمثيل والتشبيه والتجسيم ، يقول فى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية : « من الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يؤمنون

(١) سورة الأعراف آية : ٨٥ .
(٢) سورة طه آية ١١ - ١٤ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٢٥ .

بأن الله « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ، فلا ينفون عنه ماوصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلا ، وأحسن حديثاً من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدقون ، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ، ولهذا قال تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين)[١] فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلام على المرسلين ، لسلامة ما قالوه من النقص والعيب . . وأن سنة رسول الله ﷺ تفسر القرآن وتبينه ، وتدل عليه ، وتعبر عنه وما وصف الرسول ﷺ به ربه من الأحاديث الصحاح التى تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها »[٢] .

ويرد الإمام الأشعرى على من يشبه الخالق بالمخلوق بقوله : « فإن قال قائل : لم زعمتم أن البارى سبحانه وتعالى لا يشبه المخلوقات ؟ .

قيل له : لأنه لو أشبهها لكان حكمه فى الحدث كحكمها ، ولو أشبهها لم يخل من أن يشبهها من جميع الجهات أو من بعضها ، فإن أشبهها من جميع الجهات كان محدثاً مثلها ، وإن أشبهها من بعضها كان محدثا من حيث أشبهها ، ويستحيل أن يكون المحدث قديما ، وقد قال تعالى : (ليس كمثله شىء)[٣] ، [٤] .

(١) سورة الصافات آية : ١٨٠ - ١٨٢ .
(٢) مجموعة الرسائل الكبرى : ١/٣٩٣ - ٣٩٨ .
(٣) سورة الشورى آية : ١١ .
(٤) اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص٢٠ .

يرد الإمام الأشعرى أيضا على من يقول : إن الله سبحانه وتعالى جسم بقوله :

« فإن قال قائل : لم أنكرتم أن يكون الله تعالى جسما ؟ ، قيل له : أنكرنا ذلك لأنه لايخلو أن يكون القائل لذلك أراد أن يكون طويلا عريضا مجتمعاً عميقا ، أو أراد تسميته جسما ، وإن لم يكن طويلا عريضا مجتمعا عميقا ، فإن أراد أن يكون طويلا عريضا مجتمعا عميقا كما يقال فى الأجسام ، فهذا لايجوز ، لأن المجتمع لا يكون شيئاً واحداً ، لأن أقل قليل الاجتماع لايكون إلا من شيئين ، لأن الشىء الواحد لا يكون لنفسه مجامعا ، فبطل بذلك أن يكون الله تعالى مجتمعا »(١) .

أما اليهود فقد شبهوا الخالق بالمخلوق ، وزعموا أن الله سبحانه وتعالى تجسد فى صورة إنسان لكل من إبراهيم ويعقوب ، وأنه سبحانه وتعالى طعم مع الملكين الذين حضرا معه لزيارة إبراهيم ، واستراح فى ظل شجرة فى حين يروى القرآن الكريم القصة نفسها ولكن بصورة مختلفة تماماً ، قال تعالى : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب »(٢) .

وفى سورة الذاريات : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون — فأوجس منهم خيفة

(١) اللمع ٢٣

(٢) سورة هود آية : ٦٩ — ٧١

قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم — فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم — قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم — قال فما خطبكم أيها المرسلون — قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين — لنرسل عليهم حجارة من طين »(١) .

« وحسب ما ورد فى القرآن الكريم فى هذه الآيات وآيات أخرى مشابهة فإن الملائكة هم الذين أتوا إلى إبراهيم وبشروه باسحق ويعقوب وأن ملائكة الله يمكن أن يظهروا للأنبياء والرسل فى صورة بشر ، وهذه من خصائص الملائكة ، كما جاء ذلك فى الحديث الصحيح الذى أخرجه الإمام البخارى بسنده ، من حديث عائشة رضى الله عنها « أن الحرث بن هشام - رضى الله عنه - سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله ﷺ : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده على - فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى ، فأعى ما يقول قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً »(٢) .

وأختم بحثى هذا بقول الله تعالى وهو أصدق القائلين (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد ألا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا شهدوا بأنا مسلمون) آل عمران آية ٦٤

(١) الذاريات الآيات من ٢٤ إلى ٣٣

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب بدء الوحى ١٨/١

ذلك هو شأن الإسلام مع أهل الكتاب ، فهو دائما يناديهم إلى سلوك أقرب الطرق للوصول إلى معرفة الإله الواحد الحق الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وهو شعار المسلمين الدائم الذى لاينفكون عنه فى كل زمان ومكان ، فهم لا يطلبون من إخوانهم اليهود والنصارى إلا أن يتحدوا معهم فى عبادة الله وحده ، فلا يشركون معه أحداً من خلقه ، وينزهونه عن الصاحبة والولد وعن التركيب والتبعيض والحلول والاتحاد . . . .

فالمسلمون يؤمنون إيماناً جازماً بأن الله واجب الوجود منزه عن كل ما لا يليق به ، فليس كمثله شيء من خلقه ، وهو واحد لاشريك له ، ويؤمنون بأن محمداً عبده ورسوله ، بعثه الله رحمة للعالمين ، وأنزل إليه كتابا هاديا لجميع البشر ، وذلك هو دين القيمة الذى يدين به المسلمون ويدعون إليه أهل الكتاب الذين يقولون إنهم يعبدون إلها واحداً ويبطل دعوى الاقتباس عن توراة اليهود بعد أن عبث بها مؤلفوها .

وهكذا نرى أن القصص الموجودة فى التوراة إذا حكم عليها المسلمون بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية لا يكون إلا بأنها مكذوبة على الله ورسله ، وإذا قسناها بما حكم به علماء المصطلح على ما وصل إليهم من سنة رسول الله ﷺ ، فإنها لاتشبه عندهم ولا تعدل إلا الأحاديث الموضوعة وهى المكذوبة والمنسوبة - زورا وبهتانا - إلى رسول الله ﷺ ، وصحابته وتابعيهم .

الخاتمة ونتائج البحث

سقنا بعض الشبهات التى أثارها المستشرقون حول الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فى شأن التوحيد ، ورأينا كيف زعم المستشرقون بأنها مستوحاة من اليهودية ، ولقد حاول كل : من غيوم ، وستوبرت ، وجوبتين إثبات أن مفهوم التوحيد فى الإسلام لم يكن نقيا صافيا ، بل ممزوجا بالشرك والوثنية .

وبعد أن استعرضنا مفهوم التوحيد فى الإسلام وفى اليهودية اتضح لنا أن مفهوم التوحيد فى الإسلام مغاير تماما لمفهوم التوحيد فى اليهودية ، وذلك منذ زمن النبى ﷺ حتى يومنا هذا .

إن التوحيد فى الإسلام يعنى الإقرار : أن الله هو الإله ، الواحد الأحد ، الفرد ، الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وأنه سبحانه وتعالى لايشبه شيئاً من مخلوقاته ، وأن كل ما سواه مخلوق بأمره — خاضع لمشيئته .

أما التوحيد عند اليهود كما جاء فى أسفارهم فتشوبه كثير من صور الوثنية ، وعبادة الأصنام ، والشرك بالله وتجسيمه ، ووصفه بصفات النقص وتشبيه أفعاله بأحط أفعال البشر التخريبية ، بل زعموا أن البشر يستطيعون هزيمته ودحره ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وعليه فلا يعقل أن يكون رسول الله ﷺ قد أخذ التوحيد عن هؤلاء المشركين كما ادعى غيوم وأصحابه .

أما افتراءات المستشرقين على رسول الله ﷺ واتهامه بالتقرب إلى الأوثان ، وأن زيداً هو الذى هداه إلى التوحيد فقد رأينا فسادها ، لأن ما استند عليه غيوم من مراجع ليس مما يعتد به ، وبخاصة أن القصة التى أوردها تناقض وتخالف ما ورد فى المصادر والمراجع العديدة التى يعتد بها جمهور المسلمين ، كما أنه قام بالاستشهاد بحديث أخذ عن مصدر مجهول ، وجزم أنه حديث صحيح ، فى نفس الوقت الذى ينكر فيه صحة الأحاديث النبوية المتصلة السند ، والواردة فى كتب السنة الصحيحة ، ويشكك فى أصالتها وصحتها ، كل هذا يدل دلالة واضحة وقاطعة على عدم أمانة غيوم العلمية ، وعدم نزاهته وجديته وموضوعيته فى الآراء التى أوردها عن الإسلام .

أما ستوبرت وجوبتين : فقد تطابقت طريقتهما فى البحث والتأليف مع طريقة غيوم ، مما أفقد بحثيهما أيضا الدقة والنزاهة والموضوعية التى ينبغى أن تتصف بها البحوث العلمية المنهجية .

وأغرب من هذا وأعجب أن سنكلير تسدل وجواد زهير قد زعما أن محمداً اقتبس فكرة التوحيد من الكتب السابقة ، وكنت أظن أن الذى يكتب فى فلسفة الأديان مثل : سنكلير تسدل ، ويقارن بين الصحيح والفاسد منها لايكبوا قلمه إلى هذا الحد من الخلل الواضح .

نخلص من هذا إلى أن جهود هؤلاء المستشرقين وكثير من أمثالهم لاتستند على حجة ولاعقل ولامنطق ، بل هى جهود مغرضة ، الهدف منها هو النيل من الإسلام ، وأهله ، عن طريق إثارة بعض الشبهات الواهية ، والآراء المتهافتة التى ما أنزل الله بها من سلطان .

وما مثل هؤلاء والإسلام إلا كمثل بعوضة وقعت فوق نخلة فلما

أرادت أن تطير ، قالت للنخلة : أيتها النخلة استمسكى بنفسك فإنى راحلة عنك ، فقالت لها النخلة والله ما شعرت بك عندما وقفت على ، فكيف أشعر بك وأنت راحلة عنى .

ولقد قال أحد المستشرقين الأوربيين « إن أوربا حبلى بالإسلام وستلده يوما ما » .

ويقولون متى هو ؟

قل عسى أن يكون قريباً .

د / على على شاهين
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية
المساعد بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر بالقاهرة

أهم مراجع البحث

١) أدلة اليقين فى الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين المسيحيين فى الإسلام — للشيخ عبد الرحمن الجزيرى ط أولى ١٣٥٣ هـ/١٩٣٤ م — مطبعة الإرشاد مصر .

٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر ، بتحقيق على محمد البجاوى القاهرة / مكتبة نهضة مصر .

٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لابن الأثير ، تحقيق محمد إبراهيم البنا القاهرة ، دار الشعب ١٩٧٠ م .

٤) الاستشراق والمستشرقون ـ عدنان محمد وازن ـ رابطة العالم الإسلامى / مكة المكرمة .

٥) الإسلام فى مواجهة الأديان والمذاهب المعاصرة ـ المرحوم د/ جمعه على الخولى ط أولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

٦) الاسلام خواطر وسوانح ـ المستشرق الفرنسى الكونت هنرى دى كاسترى ـ ترجمه إلى العربية المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا ـ طبع بمطبعة السعادة / مصر .

٧) الإصابة فى تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلانى ، تحقيق على محمد الزينى / القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية /١٩٧٧ م .

٨) الأصنام ، لابن الكلبى ، بتحقيق الأستاذ أحمد زكى ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، الدار القومية للطباعة والنشر / القاهرة عام ١٩٢٤ م .

٩) البداية والنهاية لأبى الفداء ابن كثير الطبعة الأولى ، أشرفت على

طبعه وإخراجه مكتبة المعارف بيروت ـ مكتبة النصر الرياض ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م .

١٠) تاريخ بغداد (مدينة السلام) للخطيب البغدادى ، دار الكتب العربى بيروت / لبنان .

١١) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، لسعيد بن البطريق ، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت / لبنان ١٩٠٥ م .

١٢) تدريب الراوى شرح تقريب النووى ، للسيوطى ، طبع مصر عام ١٣٠٧ هـ .

١٣) تفسير ابن كثير ، دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨٠ م .

١٤) التوحيد وإثبات صفات الرب ، لابن خزيمة ، تعليق ومراجعة محمد خليل هراس ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م مكتبة الكليات الأزهرية — القاهرة .

١٥) الجامع لأحكام القرآن — لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى (تفسير القرطبى) طبع بمطبعة دار الكتب المصرية ط ١٩٥٧ م .

١٦ — جوهرة التوحيد ، إبراهيم اللقانى ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٩٥ م .

١٧) دراسات فى الاستشراق ورد شبه المستشرقين حول الإسلام ـ د/ على على شاهين ط أولى ١٤١٣ هـ دار الطباعة المحمدية .

١٨) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، للآلوسى / الطبعة الثانية ، دار إحياء التراث العربى بيروت / لبنان .

١٩) سيرة ابن إسحاق — تأليف محمد بن إسحاق بن يسار ، تحقيق

وتعليق محمد حميد الله ، طبع إدارة الوقف للخدمات الخيرية ، توزيع تركيا عام ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

٢٠) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلى ، دار الآفاق الجديدة بيروت .

٢١) شرح العقيدة الواسطية ، تأليف محمد خليل هراس ، مراجعة عبد الرازق عفيفى ، الطبعة الرابعة ، الجامعة الإسلامية ، بالمدينة المنورة .

٢٢) صحيح البخارى شرح كل من :

(أ) عمدة القارى ، للبدر العينى ، دار الفكر ١٣٩٩ هـ / ١٩٥٩ م .

(ب) فتح البارى ، لابن حجر العسقلانى ، شركة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٢٧٨ هـ / ١٩٥٩ م .

(ج) الكواكب الدرارى فى شرح البخارى ، للكرمانى ، مؤسسة المطبوعات الإسلامية .

٢٣) صحيح مسلم بشرح النووى ، دار إحياء التراث العربى بيروت - لبنان — الطبعة الثانية عام ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

٢٤) الفهرست ، لابن النديم ، تحقيق د . ناهد عباس عثمان ، دار قطرى بن الفجاءه ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٥ م .

٢٥) القاعدة المراكشية لابن تيمية تحقيق ناصر سعد الرشيد ورضا ابن نعسان معطى دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض .

٢٦) الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

٢٧) الكتاب المقدس ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٠ م .

٢٨) اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع لأبى الحسن الأشعرى تصحيح وتقديم وتعليق د . حمودة غرابة ، مطبعة مصر ١٩٥٥ م .

٢٩) مجموعة الرسائل الكبرى ، لابن تيمية ، دار إحياء التراث التراث العربى بيروت / لبنان .

٣٠) محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن — إبراهيم خليل أحمد طبع مكتبة الوعى العربى .

٣١) معجم الأدباء لياقوت الحموى — مراجعة وزارة المعارف العمومية الطبعة الأخيرة — مطبعة دار المأمون بمصر عام ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م .